مجموعة قصصية

د. أحمد رمضان

الفهرس

العدو ٩

تسامح ١٦

أضواء ٢٠

مؤامرة ٢٨

نقطة تحول ٣٦

عميل ٤٠

فساد ٤٤

أزمة ٤٨

في البدء كان ٥٥

رد فعل ٥٩

وصية ٦٢

هجرة ٦٥

مصرائيل

مجموعة قصصية

النسخة الإلكترونية الأولى

٢٠٢٣

تلك القصص من وحي الخيال، وأي تشابه بينها وبين الواقع فهو من وحي خيال القارئ الذكي!

العدو يتربص هناك .. لكن العدو الأسوأ يعيش بيننا

العدو

لأول مرة يلتقيا بعد أن غادر السلطة ..

تفاجئ به في الفندق نفسه الذي يقيم به ..

لم تكن هناك صحافة في المكان .. أو شهود باستثناءي

السياسي العربي البارز كان يمر في تلك الفترة بحالة مزاجية عالية، خاصة بعد أن انتشرت أنباء عودته الوشيكة إلى كراسي السلطة، وإن كان في منصب أقل ..

سيرتقي للقمة سريعا، كما فعل من سنوات طويلة .. وسيرة حياته التي يعرفها الجميع تشهد أنه يجيد التسلق ..

عندما بدأ حياته كموظف بسيط في أحدى الوحدات المحلية، لم يتوقع له أحد النجاح .. قضى ثلاث سنوات هناك قبل أن يسافر للخارج لينهي دراسته للماجستير .. وعندما عاد كان رئيسه السابق قد تولى إدارة أحد الموانئ الشهيرة في البلاد، ليلحق به ..

في سنوات قليلة عرف خبايا العمل، ومع تزايد اعتماد رئيسه عليه، بات هو اليد التي تدير المكان من خلف الكواليس .. نجح في التعاقد مع شركة خاصة لتطوير الميناء ليتحول تدريجيا من شكله البدائي إلى آخر يعتمد على أحدث ما أنتجته وسائل التكنولوجيا وقتها .. قلص الروتين وألغى العديد من التعقيدات التي تواجه العملاء، كما توسع في منح التسهيلات للمستثمرين .. تجربته لفتت الأنظار إليه ودفعته لدائرة الأضواء كقيادي واعد في مجال الإدارة .. استفاد منها هو الآخر؛ خمس سنوات كانت كفيلة بأن يفهم العملاء ويعرف كيف يتعامل مع القوانين بمرونة ويخرج بأقصى استفادة .. ابتاع شقة لزوجته وحاز عدة ممتلكات أخرى باسم عائلته .. كاد أن يخرج بفضيحة عندما انتشرت أنباء شحنة أغذية فاسدة أفرج عنها .. لم تكن الشحنة الأولى المماثلة التي تخرج تحت أوامره على أي حال، لكنها جاءت من دولة معادية تلك المرة وسبق لعدة دول رفضها بسبب احتواءها على مواد مسرطنة .. تسرب الأمر من أحد موظفيه الحانقين عليه .. شنت صحف المعارضة حملة عنيفة ضد ما يحدث .. تم إجراء تحقيق عاجل .. خرج منها بعد أن ضحى بعدد من الموظفين الصغار .. وبقى في منصبه

بعد أن هدأت العاصفة .. قدم استقالته بحجة السفر للخارج لينهي دراسته للدكتوراه .. لا أحد يعلم كيف عاش ببذخ طوال ثلاث سنوات هو وعائلته في الخارج .. وعندما بدأت نقوده بالنفاذ، عاد سريعا للوطن

التحق بالعمل في وزارة الاقتصاد بمساعدة بعض عملائه القدامى .. دفعوه لمنصب هام فلم يمر وقت طويل قبل أن يثبت كفاءته، وبرد الجميل .. تولى إدارة بعض المشاريع فحقق نجاحا في البداية دفع الصحف القومية-التي كانت تلهث لإبراز أي إنجاز للحكومة مهما كان ضئيلا- لدفعه إلى دائرة الأضواء مرة أخرى .. ظهر في عدة برامج تلفزيونية كمحلل اقتصادي مما زاد من شهرته .. كتب في عدة صحف للدفاع عن سياسات الحكومة

الاقتصادية بعد أن انضم للحزب الحاكم المهيمن على مقاليد السلطة .. ومع وفاة وزير الاقتصاد بعد صراع طويل مع المرض، تردد اسمه بقوة لتولي مكانه، خاصة مع اتجاه الحكومة للاعتماد على أجيال أصغر سنا ..

لكنه لم ينال المنصب .. تولى الوزارة أحد قادة الجيش من الحرس القديم استكمالا لسياستهم في الاستيلاء على معظم المناصب الحيوية داخل البلاد فعمل مستشارا له .. شنت صحف المعارضة هجمات واسعة على أداء الوزارة بعد ظهور عجز كبير في موازنة الدولة .. استمر ظهوره الإعلامي للدفاع عن الحكومة .. لفت أنظار ابن رئيس الدولة الذي يسعى للهيمنة على كل موزاين القوى باعتباره النجم الصاعد في سماء السياسة .. انضم لمعسكر الابن الذي يحاول تدريجيا وبحرص بالغ إزاحة الحرس القديم واستبداله برجال يثق بهم الابن وحده، ويدينون له فقط بالولاء وليس لوالده الذي يوشك أن يتم عامه السبعين قضى منها ما يقارب عقدين من الزمن في السلطة .. لم يكن الطريق سهلا، تم تسليط الأضواء عليه من قبل الصحافة بشكل ممنهج ومنظم لزيادة شهرته .. استمر تخبط الوزارة وعجزها عن إدارة الملفات الاقتصادية الكبرى .. وبعد أربع سنوات من الأداء الكارثي، لم يكن هناك بد من التغيير ..

بلغ القمة أخيرا .. في منصبه الجديد لمع نجمه، وزاد الجدال حوله .. اتخذ عدد من الإجراءات لتقليل عجز الموازنة، ليكتسب عداء الشعب على الفور .. حتى أن أحد الصحف أطلقت عليه "عدو الشعب الأول" ليتم إغلاقها سريعا ويختفي عدد من محرريها .. رفع الضرائب وفرض مزيد من الرسوم على كافة المعاملات الحكومية .. خفض سعر العملة المحلية وتفاوض على قرض من البنك الدولي بمعدل فائدة مرتفع .. نجح في الحصول على القرض دون أن يحل الأزمة .. رفع أسعار الخدمات الحكومية الأساسية كالماء والكهرباء .. وحافظ على الرواتب كما هي رغم التضخم المستمر .. وفر عدة مليارات لم يعلم أحد مصيرها لكنه لم يكتفي بذلك .. منح المستثمرين عدد من الامتيازات دون ضمانات حقيقية، ومهد الطريق للابن ومعسكره للهيمنة على كل المشاريع الاقتصادية الكبرى في البلد .. تضخمت حساباته في الخارج وزادت معها حملة الكراهية ضده .. لكن القشة التي قصمت ظهر البعير كانت بيعه لأراض الدولة بمبالغ زهيدة لعدد من المستثمرين بغرض بناء مدن شعبية في محاولة جادة للقضاء على مدن الصفيح والعشوائيات التي بدأت تزحف على أطراف المدن الكبرى، وأولها العاصمة المكتظة حد الاختناق بسكانها .. قدم تسهيلات عدة، وحرص على مد شبكة طرق كبيرة لتلك المدن بل وتزويدها بالخدمات الحكومية الأساسية كالماء والكهرباء والغاز دون مقابل يذكر، لتتحول لاحقا إلى تجمعات سكنية فاخرة لا يقطنها إلا الأغنياء، وسعر الوحدة فيها قد يوازي ما يجنيه موظف حكومي طوال عمره

أطلق عليه الشعب اسم "وزير التجمعات" بعد تلك الفضيحة .. ومع بدء تسديد أولى قروض البنك الدولى، مرت البلد بضائقة مالية دفعت الأمور للهاوية بسرعة أكبر .. لم تجد الحكومة حلا يحفظ هيبتها سوى التضحية به في محاولة لتهدئة الرأي العام الساخط

.. لم يسانده ابن الرئيس وإن وعده بالعودة إلى مكانته قريبا فور أن تهدأ الأمور .. سافر بعدها للخارج هو وعائلته وانقطعت أخباره إلا من بعض الصور التي سربها البعض له وهو يقضي وقته في قصره الباذخ في أحدى المدن الأوروبية .. قبل أن تتوارد الأنباء مؤخرا عن ترشحه لرئاسة أحد البنوك الحكومية الكبرى

تعرفت عليه لحظة وصوله للفندق الذي أعمل به .. شعرت بغصة في حلقي بمجرد أن وقعت عيناي عليه، وعاد شبح الماضي يطاردني .. أنهيت دراستي الجامعية بنجاح من سنوات طويلة فلم أجد عملا بفضل سياسات التقشف الحمقاء التي اتبعها وارتفعت معها نسب البطالة .. بالكاد وجدت عملا بعد ثلاث سنوات من البطالة في أحدى الشركات الاستثمارية الكبرى التي يقال أنه شريك فيها .. كنت أعمل لعشر ساعات يوميا بأجر لا يكاد يغطي نفقة مواصلاتي .. مات أبي من السرطان بعد أن قرر تخفيض نفقات المستشفيات الحكومية في موازنة الدولة لنعجز عن علاجه، وأمي عانت من مرض الكبد دون أن نتمكن من تغطية ثمن العلاج الذي تضاعف عدة مرات في عهده .. اعتقلت لأسابيع بعد أن خرجت في مظاهرة ضد الغلاء دفعت ثمنها غاليا .. وعندما فكرت في الهجرة كملجأ وحيد لحصار الفقر المفروض علينا في الوطن، وبعت كل ما أملك في سبيل تلك المخاطرة، تلقفنا البحر ليقطف عشرات من الطامحين فقط بحياة أفضل .. وها أنا أحيا في ليون بعد أن استقرت أحوالي قليلا .. بعد أربع سنوات من العمل الشاق والمطاردة المستمرة من قبل الشرطة، حصلت أخيرا على إقامة مؤقتة كلفتني الكثير .. أعمل في فندق وأعيش في غرفة حقيرة وبالكاد ألبي احتياجاتي، واشتاق لوطن لا أرغب مطلقا بالعودة لإحضانه، لأتفاجئ به هنا يذكرني بأسوأ ما لقيته هناك ..

حاولت تجنبه قدر استطاعتي .. شعرت بتيار غضب يهدر بداخلي فور أن وقعت عيناي عليه، لكني تمالكت نفسي سريعا .. جاء ليشهد أحد الفعاليات الاقتصادية التي تستضيفها المدينة .. فعالية لا يحضرها سوى كبار المستثمرين وعدد من الجهات الحكومية .. والوزير الذي تباهى دوما بنزاهته يعيش هو وعائلته في الفندق الفخم الذي أعمل به ويصرف ببذخ، بل ترك لي ذات مرة إكرامية ضخمة توازي راتب شهر في بلدي .. ربما أدرك يومها من ملامح وجهي أني أحد ابناء الوطن، لهذا حاول تجاذب حديث ودي معي فكنت متحفظا للغاية .. لا أريد إثارة مشاكل قد تؤدي إلى ترحيلي، ولا أضمن الحفاظ على هدوء أعصابي معه .. تجنبته لثلاث أيام بعدها .. لكني بحثت خلال تلك المدة بعمق أكبر في تاريخه الأسود الذي يحفظه الجميع .. في اليوم الرابع شاهدته في البهو يحاول أن يستقل المصعد وابتسامة تعلو وجهه وهو يتحدث في الهاتف، عندما وصل فجأة رئيس الوفد الإسرائيلي، لتتلاشى ابتسامته على الفور ..

تعرف عليه رئيس الوفد بمجرد أن وقعت عيناه عليه .. تقدم إليه بحماس وهو يمد يده لمصافحته .. ولدهشته، قابله الوزير السابق بتجهم شديد جعله يتسمر في مكانه، بل وتراجع خطوات بعيدا عنه، مترفعا عن مصافحة نظيره السابق وهو يرفع رأسه بإباء شديد .. بل رفض أن يستقل معه المصعد .. غادر رئيس الوفد الاسرائيلي محرجا .. لم

يكن هناك أحد بالجوار سواي .. بمجرد أن التفت حوله حتى تفاجئ بوجودي .. كنت في طريقي للمصعد على أي حال .. لم أجد بدا من مواصلة المضى نحوه، انتظرت المصعد بجواره لثوان دون كلام .. ورغم حذري، لم أمنع ذلك السؤال الذي يتردد بداخلي من أن يخرج للعلن، التفت إليه، سألته بفضول:

- لماذا رفضت مصافحته؟

قطب حاجبيه على الفور، رفع رأسه عاليا وهو يتطلع إلى باستنكار شديد، قبل أن يهتف في دهشة ممزوجة بالغضب:

- لأنه عدونا بالطبع .. كيف أصافح شخص لا يضمر سوى الحقد والكره لوطني، ويسعى جاهدا بأي وسيلة لإيذاء أبناء وطننا .. أنت تعلم ذلك

لم أعلق، استقل بعدها المصعد بإباء .. راقبته بصمت وهو يدلف إلى المصعد نفسه الذي استقله رئيس الوفد الإسرائيلي منذ قليل .. في طريقه إلى الطابق الثالث تلك المرة، أكثر طوابق الفندق بذخا .. متجها بعزة نفس نحو الجناح الضخم الفاخر الذي يقيم به

تسامح

تأخرت عن العمل، أتطلع إلى ساعتي بقلق .. العربة لا تتحرك، زحام غير طبيعي في كل الأوقات، هكذا حال مدينتنا الصغيرة في الآونة الأخيرة .. ألحظ أن معظم ركاب العربة المزدحمة من الفلاحين كالعادة، وكذلك المارة في الشارع .. أتنهد وأنا أمسح عرقي .. اللعنة على القادمين من الريف ليضيقوا علينا الخناق في المدينة .. يقومون بالتناسل كالأرانب ثم يهاجروا في أقرب فرصة إلى المدينة التي ضاقت بأهلها ليزيدوا معاناتنا .. استوطنوا كل مكان حتى اضطر سكان المدينة الأصليين إلى النزوح خارجها بحثا عن مأوى في المدن الجديدة النائية الخالية من السكان .. أتطلع إلى الريفي الجالس بجواري بغضب مكبوت، باعوا أراضيهم الخصبة لتتحول إلى مبان أسمنتية قبيحة، تضخمت أسعار الطعام بعدها بعد أن بتنا نستورد معظم احتياجاتنا .. وعندما ينجح أحدهم في جمع مبلغ من المال سواء ببيع أرضه أو السفر للخارج، لا يفكر في العودة للاستقرار في قريته أو تنميتها، بل يسارع للإقامة في المدينة لاستثمار أمواله .. ابتاعوا الأراضي بأضعاف ثمنها الفعلي، والمدينة صغيرة وأراضي البناء بها محدودة .. رفعوا أسعار العقارات التي قاموا ببنائها لتعويض ما أنفقوه حتى عجز البسطاء من أبناء المدينة عن توفير سكن فيها .. ارتفعت ايجار المحال أيضا لترتفع معها أسعار كل شئ .. حتى فرص العمل لم تسلم من قبضتهم؛ انتشروا كالجراد يمتهنون كل الأعمال وبأجور أقل، وبمجرد أن يستقر أحدهم حتى يجلب عائلته بأكملها وبعض معارفه لتغرق المدينة أكثر في طوفانهم .. وتدريجيا باتت مفاتيح التجارة والصناعة في أيديهم، ولم يعد يتبق لنا في مدينتنا سوى الفتات .. أزفر أنفاسي في ضيق .. واليوم عندما سارعت بابني إلى المستشفى بعد أن ارتفعت درجة حرارته فجأة بصورة تنذر بالخطر، لم أجد مكانا فيها بسبب القادمين من الريف، حتى مستشفايتنا يزاحموننا فيها، رغم كثرة المستشفيات والوحدات الصحية في القرى .. وأخي الأصغر الذي تخرج من سنوات، ما زال يعمل بعقد حكومي مؤقت في الأرياف ويستقل ثلاث مواصلات ذهابا ومثلها في العودة ويقضي ساعات على الطريق لأن الشواغر المحدودة في المدينة استولى عليها بعض أبناء الريف الأقدم تخرجا بعد أن رفضوا العمل في قراهم حيث ولدوا .. هل هذا يعقل .. دوامة لا تنتهي، والحال من سئ لأسوأ، وعما قريب لن نجد مكانا في المدينة التي ولدنا ونشأنا بها

****

تأخر عن العمل كالمعتاد، والحجة الزحام، رغم حضور زملائه في موعدهم .. أتطلع نحوه بغيظ، لولا تمسك المدير به لفصلته من فترة طويلة .. لا ينتمي إلى المكان هنا بأي حال .. من البداية لم أحبذ فكرة أن يعمل أحد الملتحين معنا .. مال الملتحين ووكالات الإعلان .. وها هو يناقش عميلة دون أن ينظر إليها، رغم أني أكدت عليه أكثر من مرة أن يحافظ على تواصل بصري جيد مع العميل عندما يحادثه؛ ذلك يمنح العميل شعورا أكبر بالارتياح والثقة .. كما لا يتعاون مع أي زميلة في العمل بحجج مختلفة، ولا يتورع رغم ذلك عن التطلع إليهن خلسة كما ضبطته ذات مرة .. لما قبل الوظيفة من الأساس

طالما لا تناسبه .. لا أكره التدين بطبعي، لكني لا أحب المتعصبين .. هواة التدين الزائف والمتشددين منهم .. وأمثاله يهاجموننا ليلا ونهارا ولا نسلم من حدة ألسنتهم، بل يزعمون في كل مناسبة أن صناعتنا حرام، ولو كان لهم الأمر لهدموا المكان فوق رؤوس أصحابه رغم أن معظم أعمالنا هادفة .. العميلة تنصرف من عنده غاضبة كما يبدو، أتنهد، تأخر أيضا عن تسليم إسكربت الإعلان الذي طلبته منه من فترة .. ليست أول مرة .. وها هو المدير يطلبني مجددا ليسألني عنه .. سأطلب من هناء أن تساعد ذلك المتعصب، وإذا رفض التعاون معها كعادته في رفض التعاون مع النساء، سأحيله إلى التحقيق دون تردد ..

****

أخيرا جاءت بإسكربت الإعلان الذي طلبته منها ثلاث مرات من قبل، لكنه يحتاج إلى كثير من التعديلات .. بدأ صبري تجاهها ينفد .. لما لا تقوم بعمل ولو شئ واحد فقط مما أكلفه بها بصورة صحيحة .. ثم تتجاسر رغم ذلك وتطلب أجازة استثنائية بحجة الاعتناء بابنها الذي ارتفعت درجة حرارته فجأة اليوم .. كم مرة يتكرر الأمر .. اللعنة على النساء، وشعارات المساواة .. تصر المرأة أن تخرج للعمل وتحارب الجميع من أجل تحقيق حلمها بالوظيفة، ثم تنتهز كل فرصة للهروب والتملص من العمل والعودة للمنزل .. وأعذارهن لا تنتهي .. حتى عندما تأت إلى العمل تقضي معظم الوقت في الثرثرة، ولا تقوم بأي شئ تكلف به بشكل صحيح .. لن أوافق على الأجازة تلك المرة .. عليها الانتهاء من إعداد إسكربت الإعلان اليوم .. إن كانت ترى بيتها أهم من العمل، فأنا على استعداد تام لارسالها هناك على الفور، تلك المرة دون رجعة .. لم تخلق النساء حقا إلا للمطبخ .. أتناول الهاتف بضيق .. على أن أتصل بالمخرج لوضع الرتوش النهائية الليلة ..

****

اعتذرت عن حفل عيد ميلاد حفيدي للوفاء بموعده، لكنه تأخر .. أمثاله لا يحترمون أوقاتنا .. يريد أن يسلمني إسكربت الإعلان الذي يصر أن نصوره بعد يومين رغم أني طلبت منه مهلة أكبر للتحضير لكنه لم يستمع إلي .. اعتاد فقط إصدار الأوامر دون مناقشتها .. وها هو يظهر أخيرا .. يرتدي بذلة أنيقة يكفي ثمنها لإطعام عائلة لشهر كامل، وبصحبته حسناء مختلفة عن تلك التي رأيتها معه المرة الماضية .. سلمني الإسكربت وألقي علي بأوامره ثم انصرف سريعا دون أن تتاح لي فرصة للمناقشة .. اللعنة على الأغنياء .. شاب أحمق لم يشتد عوده بعد ويتعامل معي بتلك الطريقة المهينة، ولا أجرؤ على الاعتراض .. يظن أن المال كل شئ، وأن كل ما تحت السماء يخضع لقوانين البيع والشراء حتى البشر .. لولا حاجتي الشديدة للمال لما قبلت باخراج العمل .. بعد ثلاثين عاما من العمل الفني والنجاحات المتتالية، لا أجد ما أؤمن به مستقبل أسرتي أو تغطية نفقات علاج زوجتي .. أزفر أنفاسي في ضيق .. لا أحب حقا تلك النوعية من

البشر، أؤمن أنهم أسوأ ما في مجتمعنا، ولو كان الأمر بيدي لقتلته هو وكل من على شاكلته مهما كانت العواقب ..

على أن أتصل بطاقم العمل، والنجم الذي سيقوم بتصوير الإعلان، والذي يعتبرني مثله الأعلى كما يزعم، كان يجب أن يراني وأنا أتسول من ذلك العابث اللعين ليدرك حقيقتي .. ربما أعتذر له عن موعدنا الليلة وأحدد موعدا آخر في الغد لمناقشة التفاصيل ..

****

المخرج الأحمق يصر أن يغرقني بتعليماته قبل التصوير ولا يستمع لرأيي .. أقنعته بصعوبة بتغيير بعض التفاصيل .. لهذا لا أحب العمل مع المخرجين كبار السن؛ لا يتمتعون بالمرونة الكافية ولا يتقبلون آراء غيرهم بسهولة، ومعظمهم توقف عن متابعة كل هو جديد على الساحة من سنوات .. يعتمدون فقط على خبراتهم في عالم يتغير سريعا ولم يعد به مكان لأمثالهم .. ذلك المسن المخرف .. كان الأجدر أن يظل في بيته يتمتع بتقاعد مريح، ويترك مكانه للأجيال القادمة، لكنهم يصرون على الاستمرار في مواقعهم حتى النهاية، ولا تجد الأجيال الجديدة سوى الفتات .. لن يفهمني مهما شرحت له وجهة نظري، مضطر أن أجامله وأمسك لساني حتى ينتهي الأمر ..

هاتفي يرن .. صحفي شديد الإلحاح يلاحقني من أجل مقابلة، ولا وقت لدي .. سأحدد له موعدا جديدا غدا في الأستوديو، ربما ألقاه بعد الانتهاء من تصوير الإعلان ..

****

ثالث مرة يضرب لي موعدا ولا يلتزم به .. وها هو يدعوني أخيرا إلى الأستوديو حيث يقوم بتصوير أحدث إعلاناته ..

صافحني ببرود بمجرد أن التقيته، وقد نسى أمري تماما .. ثم انشغل بالتصوير وتجاهلني .. اللعنة على المشاهير .. يظنون أنهم لامسوا السماء بحق وأن حدود عبقريتهم لم يتجاوزها أحد، رغم أن كل ما يقدموه لا هدف له في النهاية سوى التسلية .. كان ممثلا جيدا في بداية حياته الفنية وقدم عدد من الأعمال المميزة بالفعل، لكن أسهمه تراجعت كثيرا في الفترة الأخيرة بعد أن بات يكرر نفسه .. فيلمه الأخير لم يحقق أي نجاح جماهيري ليزعم أن الفيلم يقدم حالة فنية مختلفة عن السائد، لكن النقاد هاجموا الفيلم أيضا ووصفوه بالهابط، فدخل في خلافات حادة مع عدد منهم .. لا يتقبل النقد ولا يريد الاعتراف بالفشل بأي حال

للأضواء سكرة من يجربها لا يرغب أن تزول بسهولة .. ورغم فشله إلا أني سمعت أنه تقاضى عدة ملايين من أجل الظهور في الإعلان الحالي، رغم أنه إعلان خيري .. أزفر أنفاسي في ضيق .. اللعنة على بلد لم يعد للعلم فيها قيمة، وأنصاف المتعلمين هم سادتها .. وها هو ممثل بلا شهادة يتربع على قمتها، بينما أتقاضى ملاليم ولا أجد مكانا في أي جريدة كبرى، رغم شهادة الماجستير التي أحملها.. بل ويتعامل معي بعنجهية قاتلة ..

ويسخر من الجريدة التي أعمل بها، رافضا في البداية أن يجري الحوار لأنها جريدة صغيرة .. قبل أن يتدخل منتج أعرفه لإقناعه ..

انتهى التصوير .. منحني عشر دقائق فقط للمقابلة، سألته على الفور عن الإعلان الذي يقوم بتصويره، أشعل سيجارة رغم لافتات منع التدخين في الأستوديو، ثم أجاب قائلا بهدوء:

- لا أقوم عادة بتصوير الإعلانات .. لكن فكرة الإعلان أعجبتني .. خاصة بعد أحداث الفتنة الطائفية الأخيرة في بلادنا، وهي فتنة مصطنعة بالطبع .. شعبنا معروف دوما بتسامحه الشديد، ويكره التعصب بكافة صوره، ولن نخضع للمحاولات الصهيونية لتشويه سمعتنا .. لدينا تلاحم بين فئات الشعب المصري لا تجده في أي مكان آخر، من هنا كانت أهمية الإعلان الحالي، كجزء من حملة دعاية توعوية وثقافية كبرى، كي نؤكد أن بلادنا خالية من التعصب الأحمق .. و ..

قطع كلامه فجأة، أخرج هاتفه ليعبث به قليلا، التغطية سيئة داخل الاستوديو، سألني بلهفة:

- هل تعلم نتيجة لقاء الزمالك؟ .. لا بد أن المباراة انتهت الآن ..

هززت رأسي بالنفي، انتهز فرصة مرور مجموعة من العمال فسألهم، اندفع أحدهم قائلا بتهكم على الفور وهو يشيح بيده:

- انهزموا كالعادة .. أي عاقل يشجعهم على أي حال .. فريق يدمن الهزائم، ولا يجيد أنصاره سوى صناعة المبررات .. الكون بأكمله يتآمر ضدهم كما يؤمنون

انشغلت في محاولة العثور على السؤال التالي، فلم أنتبه إلا متأخرا للممثل وهو يوجه نظرات نارية حادة إلى العامل الذي أكمل طريقه كأن شيئا لم يكن

قمت بتوجيه سؤالي التالي للممثل .. بدا شاردا .. رأيته وهو يتململ على كرسيه، قبل أن يقاطعني ويتجه غاضبا نحو مدير الإنتاج، وهو يشير بثورة عارمة إلى العامل الضخم الذي يمضي بعيدا بهدوء، ويهدد بترك العمل إن لم يتم طرده في الحال، بينما تتعالي ضحكات العامل مع باقي العمال بصوت عال وتصل إلى أسماعنا بوضوح

أضواء

- هل يمكن أن تخبرنا قليلاً عن فيلمك الجديد؟

- الفيلم مأخوذ عن قصة حقيقية وأتقمص فيه شخصية صعبة أتمنى أن تكون مفاجأة للجمهور .. هذا كل ما يمكنني التصريح به

قالها الممثل سريعاً للمذيعة التى استوقفته قبل باب الأستوديو .. ثم انسحب دون مزيد من الكلام رغم فيض الأسئلة التي ألقتها عليه .. لم يشبع فضولها تماماً وسره أن يراها مستاءة لذلك .. استقبله مساعد المخرج بمجرد أن دلف إلى الأستديو وبيده نسخة من نص المشاهد التى عليه تصويرها اليوم .. توجه إلى الغرفة المكيفة الخاصة به وطلب من مساعد المخرج القراءة بصوت عال بينما انشغل تماماً بتفقد بضعة خطوط قاتمة ظهرت أسفل عينيه .. ما تبقى من آثار سهرة الأمس أو لعله الإفراط فى الشرب .. لم يكن ينوي السهر ولكنهم أقنعوه كالعادة .. وليعترف أن الحفلة كانت صاخبة وممتعة .. ابتسم وهو يستعيد بنشوة كيف قضى ليلته .. انتبه على مساعد المخرج وهو ما زال يواصل القراءة بلا توقف .. أشار إليه فالتزم الصمت على الفور .. طلب منه كوب من القهوة المركزة لعله يتخلص من الصداع العنيد الذي يفتك برأسه .. ثم أخرج علبة سجائره الأنيقة .. وجلس يدخن رغم لافتات منع التدخين القريبة منه وهو يعيد قراءة المشاهد دون اهتمام

ما زال ينتظر دوره فى الطابور .. لم يعد يحتمل ولكن يصعب عليه أن يرتفع صوته بالشكوى .. لم يعتاد ذلك من قبل حتى فى أسوأ الظروف .. ربما بسبب حياة الجندية الطويلة التى عاشها .. حتى بعد أن شاب شعره ووهنت عظامه فلم تعد قادرة على حمله لكنه ما زال يأنف من الشكوى علنا بأي من أوجاعه .. نهرت الممرضة بصوت عال المتزاحمين أمام باب الوحدة الصحية القديمة بعد أن تشاجر اثنان منهما وعلا ضجيجهما .. بدأ العرق ينساب منه ولكنه حافظ على صمته .. قال لنفسه يواسيها " هانت " وهو ينظر إلى الطابور الطويل الذى أصبح فى مقدمته بعد ساعات من الانتظار

انتهى من ارتشاف قهوته الثانية .. ما زال معظم العاملين داخل الأستوديو فى انتظاره .. والمخرج يصرخ بغضب على كل من يقابله فى طريقه لينفث عن توتره، إلا على الممثل الذى حضر متأخراً وما زال بعد ساعة داخل غرفته يراجع النص .. أرسل المخرج مساعده للمرة الرابعة لاستعجاله فعاد شاحب الوجه بعد أن ألقى عليه الممثل سيل من السباب لقطع تركيزه كما زعم .. ابتلع المخرج غضبه وهو يتطلع لساعته بقلق .. أوشك النهار أن ينتصف دون أن يبدأ في التصوير .. أخيراً شعر بحركة فتطلع خلفه ليرى نجمه قادماً .. أشار سريعاً للعاملين بالاستعداد رغم أن المشهد معد من فترة .. اقترب من الممثل ملقياً بعض النصائح تقبلها دون مبالاة .. كتم المخرج غيظه وهو يعود إلى مكانه

.. وقف الممثل تجاه الكاميرا التى أشار عليها المخرج .. اكتمل حضور باقى الممثلين .. ساد الصمت .. أشار المخرج أخيراً بنفاذ صبر لبدأ التصوير ..

أخيراً وصل إلى باب المركز الصحي .. يشعر بألم كبير فى ركبته ولكنه هنأ نفسه على الصمود .. فى الجيش من أربعين عاماً كان يقف لست ساعات كاملة وأحياناً لثمان دون أن يثني ساقه ولكنها أيام ولت مع شبابه .. سرقت الأيام صحته ببطء تدريجياً مع كل صباح وساعدها فى إنجاح مهمتها الخبيثة مشقة العمل فى حقله الكبير بمفرده .. ولكنه وصل أخيراً بثبات .. لم يفترش الأرض مثل باقي المرضى ممن أثقلهم الانتظار أو يتكأ على الحائط ليتحمل ثقل جسده .. نظر لساعة المركز القديمة فاكتشف أنه تأخر بالفعل .. ما زال عليه العودة لري أرضه .. انتبه على صوت الممرضة تصرخ فيه بصوت عال كي يتقدم إلى غرفة الكشف .. تمنى أن يخبرها أنه ليس أصم فلا داع لصراخها العالي لكنه كتم احتجاجه .. دلف ببطء إلى غرفة الكشف بينما ظلت فى مكانها ترمقه بنفاذ صبر وهو يتقدم .. وتتطلع بتجهم شديد نحو المريض التالي ..

انتهى من أداء المشهد بعد أن أعاده ثلاث مرات .. ما زال أمامه ثلاث مشاهد أخرى .. جاءه أحد العمال بكوب من الماء طلبه بعد أن شعر ببعض الإرهاق .. تطلع بقلق إلى هاتفه الذى يحتفظ به رغم أوامر المخرج بمنعه داخل الأستديو .. رسالة من فتاته .. ابتسم .. ساعتان ويلتقيها .. فكر فى مكان لقضاء اليوم معها بعيداً عن أعين الناس وكاميرات التصوير اللعينة التى تصيدته كفريسة سهلة وثمينة المرة الماضية على متن باخرة سياحية .. انتبه على صوت المخرج وهو يشير لبدأ تصوير المشهد التالي فزفر أنفاسه فى ضيق .. نهض بتثاقل وهو ما زال يواصل التفكير فى مكان مناسب ..

جلس عاري الصدر أمام الطبيب .. أمامه مرايا كبيرة انعكست عليها نظراته بلا وعي .. برزت عظامه بشدة .. من فترة لم يرى جسده فى المرآه .. لم يدرك أنه خسر كثير من وزنه حقا في الفترة الأخيرة .. سرحت عيناه حتى استقرت على الندبة .. ندبة طويلة تمتد من أسفل كتفه وحتى منتصف صدره بقليل ما زالت تحتل مكانها بوضوح على جانبه الأيسر .. سحب نفساً عميقاً كما أمر الطبيب .. أغمض عينيه وبيده تحسس الندبة .. زحف يوماً تنفيذاً للأوامر لمهاجمة ثكنة للعدو طالما أرهقتهم بنيرانها لكن فاجأه جندي .. قبل أن يطلق عدوه النيران عليه انقض ونجح فى انتزاع سلاحه ولكن الجندي الخبيث انتشل سكيناً فجأة من جيبه .. ولولا أنه تراجع بسرعة لنفذ النصل الحاد إلى قلبه ولكنه اكتفى بشق طولي لم تمحو الأيام آثاره .. يومها أنقذه زميل آخر من الموت وتعلم بعدها أن لحظة سهو تساوي حياة فى تلك الحرب .. ظن أنه استوعب الدرس جيداً وأنها آخر أخطائه ولكن هفواته تكررت كثيراً بعدها .. ربما بسبب اندفاعه المتهور أحياناً أو حماسه

المتقد .. هناك ندبة أخرى أعلى ظهره جراء قنبلة ألقيت بالقرب منه تأخر لجزء من الثانية فى الاحتماء منها كانت كافية لتخترق أحد شظاياها ظهره بعمق .. وندبات على ذراعيه وظهره سببتها الأسلاك الشائكة أثر انسحاب سريع متهور من أحد مواقع العدو التى هاجمها بجرأة .. أغمض عينيه قليلاً بألم .. أما الأسوأ فكانت إصابة ساقه برصاصة كانت السبب فى إنهاء خدمته .. نزف طويلاً بعد أن توغل فى عمق خطوط العدو ولم يصل أحد من زملائه لإسعافه إلا متأخراً .. وعندما وصل للمستشفى كان الجرح ملوثاً بشدة برمال الصحراء ودخان البارود العالق فى الهواء كضباب قاتم يعيق الرؤية .. فقد كثير من دمائه وانتابته حمى بعد وصوله للمستشفى بساعات فظل يهذي بكلمات وأشياء غير مفهومة .. كوكتيل غير منطقي لا رابط يجمعه .. أغاني حماسية وأسماء -ربما لعائلته أو لأصدقائه- وأناشيد وأدعية وصرخات .. هكذا علم من الأطباء عندما أفاق .. أصعب لحظات حياته كانت عند استعادته للوعي للمرة الأولى بعد الإصابة .. استعاد صفاء ذهنه بشكل مباغت ليجد نفسه محاطاً بالمرضى داخل مستشفى كبير.. تطلع للوهلة الأولى بفزع تجاه ساقه المغطاة تحت بطانية مهترءة .. لم يشعر بها نهائياً .. لبرهة توقع أنهم بتروها .. ما زال يتذكر أول طبيب تفحص إصابته عند قدومه للمستشفى قبل فقدانه للوعى .. صورته وهو يهز رأسه بأسف مقرراً أن الساق ربما تكون بحاجة للبتر لم ترحمه أو تبارح ذاكرته .. بيد مرتعشة أزاح الغطاء لتظهر كتلة بيضاء واضحة تحتها .. ساقه محاطة بالجبس الأبيض ولكنه لمح أصابع قدميه تبرز منها بوضوح .. لم يشعر بدموعه تنساب منه رغماً عنه .. منحته الرصاصة عرج خفيف سيظل يصحبه طوال عمره دون أمل فى أن يفارقه فلم يعد بقادرعلى العودة للجندية .. عاد إلى قريته بعد عدة أسابيع مسرحاً بوسام وحقيبة من ملابسه القديمة المهترءة .. رجع بعد أن ظن أن الحرب انتهت منه ولكنه اكتشف حرباً أكثر ضراوة فى قريته .. حرب أكبر لم تمنعه إصابته من خوضها

انتهى الطبيب من الكشف عليه .. كتب له بعض الأدوية سريعاً ثم نادى الممرضة المتجهمة استعداداً لاستقبال الضحية التالية .. لم يستغرق الكشف ثلاث دقائق بعد ساعات من الانتظار .. كتم حنقه رغم ذلك .. سحب ملابسه على جسده الواهن وخرج يجرجر قدميه مسرعاً للحاق بعمله

عليه أن ينام مبكراً .. يعلم أنه سيفشل ولكن يجب أن يحاول .. غداً مشاهد خارجية .. كم يكره تلك المشاهد الحمقاء .. الشمس والعرق والغبار وحرارة الصحراء .. وبعض مشاهد الحركة الخطرة سيتأكد قبلها أن دوبليره موجود .. تقلب على فراشه بملل .. ثم عبث بهاتفه قليلاً .. أرسل رسالة لحبيبته .. ابتسم وهو يتلقى الرد سريعاً .. تأكد أن النوم لن يطاوعه فنهض من الفراش يفكر فى أنسب طريقة لقضاء سهرته

عاد إلى قريته ليجد أن الحياة لم تختلف كثيراً عما كانت عليه على الجبهة .. ربما أسوأ .. فى الحرب كان له عدو واحد واضح أمام عينيه أما ينتصر عليه فيحيا كبطل، أو يموت فيخلد كشهيد .. معادلة سهلة فقدت كثير من قيمتها عند عودته .. فى قريته اكتشف أن لديه أكثر من عدو وعلى أكثر من جبهة يخوض حربه .. وأن عليه المقاومة بلا توقف فقط كى يستعيد حقه، أو يستسلم فينتهي مصيره إلى الموت حياً .. أسوأ أنواع الموت والتى لم يخشى حقا طوال عمره سواها .. ليس هناك ألعن من أن ينتهى نبض الحياة داخل إنسان دون أن يدرك ذلك أحد سواه .. دافع عن أرض الوطن ليعود فيجد الوطن سلبه أرضه .. كادت المرارة تقتله بعد أن فشلت الحرب طوال سنوات فى ذلك .. حقله الخصب استولى عليه بعض ذوى السلطة بعد أن طالت غيبته .. خاض حرباً أخرى طويلة الأمد خرج منها مثخن بجراح جديدة أكثر عمقاً وألماً ولكن بأرضه سليمة .. لتبدأ معها قصة شقائه

تلقى اتصال من أحد القنوات تطلب منه لقاء تلفزيوني .. أحال الأمر لوكيل أعماله للاتفاق على المقابل المالي .. يعلم أنه أكثر قدرة منه على التفاوض والحصول على عرض يناسبه .. اشترط أن لا يتكلم عن عمله الحالي .. لا يريد أن يحرق الفيلم للجمهور المتعطش .. اتفق معهم أيضاً على قراءة سكربت الحلقة والاتفاق على الأسئلة قبل بدء التسجيل .. سرعة البديهة ليست أحدى مميزاته ولا يحب الأسئلة المفاجئة التى يستنزف بها مقدم البرنامج كرامة ضيفه أمام الجمهور أو يحرجه لزيادة نسبة المشاهدات .. سبق وأن وقع فى هذا الفخ من قبل ولا يريد تكرار التجربة .. وربما .. لو سار البرنامج كما يهوى .. يعلن لأول مرة نبأ خطبته أمام الجمهور

سنوات من الشقاء مع الأرض قبل أن تبوح بسرها .. أهملها غيابه ورعونة من زرعها بعده حتى فقدت كثير من رونقها .. طهرها من الأعشاب وزحف رمال الصحراء المتاخمة لحدودها الشرقية .. شق قنوات جديدة وطهر المصرف القديم وابتاع ماكينة ري حديثة بعد أن سُرقت القديمة .. من مخزون مكافآته الضئيلة اشترى أفضل السماد والمبيدات .. لم تبتسم له الأرض إلا بعد أن دللها كثيراً .. وقتها فقط أدرك أنه لم يعد ينقصه بعد الأرض سوى أسرة .. أسرة تعمل على تثبيت جذوره الهشة مرة أخرى فى تربة الحياة فبحث عن فتاة أحلامه حتى ساقه الحظ إليها .. ابنة مزارع من جيرانه شاهدها عدة مرات تعمل فى حقل والدها خاصة أيام الحصاد بعد أن هاجر أخوتها لبلاد بعيدة بحثاً عن رزق تعذر العثور عليه فى الوطن .. تذكر أول مرة رآها .. أدرك من نظراته الأولى التي خانته فأبت أن تفارقها أنها هي من حلم دوماً بها وطالما راودت خياله صورتها .. كاد يطير من الفرح عندما علم من ابنة عمه وصديقتها المفضلة أنها تبادله الشعور نفسه .. تقدم لوالدها وبدأ يعد الأيام بلهفة شديدة لموعد زفافه .. اضطر أن

يقترض ويبيع جزء من محصوله القادم قبل أن تنبته الأرض حتى يجهز بيته ليليق بها .. ويبتاع لها هدية زفاف مناسبة

ابتسم لكاميرات التصوير وهي تلتقط صور حفل زفافه .. عروسه رائعة كالعادة .. اختارها بنفسه .. أو هي من فعلت .. لا يهم .. المهم أنه اقترن بها

صحيح أنه تردد طويلاً خوفاً من أن يفقد جزء من شعبيته الكبيرة كممثل جمهوره أغلبه من النساء ولكنه حسم أمره في النهاية .. لم يطمح فى زواج أفضل مع زوجة جميلة اسم عائلتها كفيل وحده بفتح كل الأبواب المغلقة .. ما يضايقه أن شهر العسل لن يستمر لأكثر من أسبوع فقط؛ عليه العودة بعدها لاستكمال تصوير فيلمه للحاق بموعد عرضه المقرر مسبقاً خاصة بعد أن تعطل التصوير طويلاً بسببه .. عروسته لم تمانع على أي حال .. ذلك الفيلم اللعين لا يريد أن ينتهي .. ابتسم مرة أخرى وهو ينهض مصافحاً أحد كبار المسئولين من الحضور ممن تقدم لتهنئته للتو .. حرص على أن يشد على يده بحرارة .. قبل أن يعتدل بخبرة لمواجهة كاميرات التصوير التى بدأت تلمع سريعا لتلتقط صور تلك اللحظة ..

هاجمها المرض بعد أن أنجبت ابنه الوحيد .. مرض طويل مرهق استنزف صحتها وكل موارده .. وربما الأسوأ؛ استنزف قلبه ومشاعره وهو يراها تذبل أمامه يوماً عن يوم دون أن يتمكن من تقديم يد المساعدة .. أكدوا أنها تحتاج لعملية كبيرة حتى تشفى .. والأفضل أن تجرى فى الخارج .. والدولة التى دافع عنها لم تبال بصحة حبيبته .. لم يكن معه مال كاف .. لأول مرة يقف موقف اختيار لم يتوقعه بين طرفين يعشقهما لحد الجنون .. اختار وهو يبكي وباع على الفور جزء من أرضه العزيزة كي يسدد ضريبة علاج زوجته .. نجحت العملية ولكن ماتت المريضة .. مضاعفات مفاجئة بعد العملية كما قالوا .. نقلوا إليه الخبر فى المستشفى يومها فلم يستوعب الأمر فى البداية أو يستشعر قسوته إلا بعد أن شعر أن جزء عزيز منه رحل معها .. لو كان الأمر بيده لباع ما تبقى من أرضه وكل ما يملك من أجل أن تظل معه ولكن القدر حرمه منها وتركه وحيداً مع طفل لم تثبت صورة أمه بعد فى ذاكرته .. حاول أن يتماسك ليقف على قدميه بعد الصدمة .. يدرك أن على قلبه المثخن بجراحه أن يستمر بالنبض ولو قسراً من أجل ولده .. له وحده كرس باقى حياته .. أكمل دراسته التى تركها صغيراً مضطرراً حتى لا يواجه ابنه أب جاهل مستقبلاً .. ضحى بمعظم احتياجاته الزهيدة من أجل أن يزوده بكل ما يتطلع إليه .. اصطحبه للأرض يومياً ولكنه منعه من العمل فيها، فقط ليرقبه بسعادة وهو يستذكر دروسه .. سنوات زحفت لم يشعر بها ليزداد الشيب فى رأسه ويغزو المرض جسده المرهق بسهولة لم يتوقعها .. لكنه شعر أنه استعاد كل شبابه وقوته عندما التحق ابنه بالكلية التى حلم بها طويلاً .. بكى لأول مرة منذ وفاة زوجته وهو يودع ابنه مغادراً للإقامة فى المدينة

لاستكمال دراسته وإن حرص على أن يبكي كعادته منزوياً بعيداً عن أعين الناس وبخاصة أعين ابنه .. الحزن وجبة ثقيلة لا يرغب أن يشاركه فيها أحد .. عد الأيام وأحصى الساعات وراقب الليال بصبر مترقبا عودة ابنه ولكنه أكمل طريقه هناك بعيداً عنه .. وزادت المسافة بينهما عندما قرر الولد السفر للخارج بحثاً عن مستقبل أفضل لن يوفره له الوطن رغم نبوغه .. وقتها فقط أحس بوطأة الوحدة وثقل السنين .. وغربة داخل وطن لم ينقذ قدمه أو يعالج زوجته أو يحرص على ترسيخ جذور ابنه فى تربته ولو قليلاً .. من يومها لم يعد يمشى مستقيم الظهر كما كان .. شئ ما أقوى منه يثقل روحه .. لم يعد يتطلع لمنظر شروق الشمس بلهفة كل صباح .. لم يعد هناك جديد يحمله الصباح إليه ويترقبه .. رغم ذلك واصل عمله فى حقله بجهد .. فقط كي لا تموت أرضه ..

انتهى من أداء المشهد الأخير .. تلقى تصفيق الحاضرين فى الأستوديو بابتسامة ثقة .. أخيراً انتهى من فيلمه الجديد بعد أسابيع من التصوير .. تنفس بارتياح .. يأمل أن يعوضه الفيلم الجديد إخفاق فيلمه السابق .. ورغم القلق الذى يعتريه كل مرة مع اقتراب موعد عرض عمل جديد له واقتحامه سوق المنافسة خوفاً من إيرادات الجمهور وآراء النقاد، لكنه واثق من نجاح الفيلم تلك المرة .. ميزانية ضخمة رصدت له وشهور طويلة من التحضير والتصوير .. قصة جيدة تم اختيارها بعناية ومؤثرات متقنة .. بالإضافة إلى طاقم عمل فني على أعلى مستوى ..

لما الخوف الذى يشعر به بداخله الآن إذن .. ربما بسبب زوجته .. بعد ثلاث أشهر من الزواج فاجأته بنبأ حملها .. تلقى النبأ فلم يدر للوهلة الأولى كيف يتصرف، لكنه تظاهر بالفرح أمامها .. ألجمته المفاجأة بالفعل .. لم يصدق أنه سيصبح أباً .. لم يخطط للأمر فى الواقع .. ولم يتخيل نفسه في ثياب الأب .. اصطحب زوجته لأفضل الأطباء لمتابعة حالتها .. تعهد والدها أن تلد بالخارج فور علمه بالخبر السعيد، طمعاً فى الحصول على خدمة أفضل كما زعم، وربما أيضاً أملاً فى أن يحمل حفيده القادم جنسية البلد الأجنبي الذى تلد به .. ولم يعترض .. سيصطحبها اليوم لسهرة لطيفة بمناسبة انتهاء العمل .. خاصة بعد أن انشغل عنها طوال الفترة الماضية بسبب الفيلم .. وأشياء أخرى

عاد إلى بيته يومها يجرجر قدميه بصعوبة .. شئ ما يمنع الهواء أن ينفذ بحرية إلى رئتيه .. ويعيق قلبه أن ينبض بحيوية كعادته .. شئ ما لا يدري كنهه يجعل الصور تتلاشى أمام عينيه، ويثقل سمعه فتغدو الأصوات كلها بعيدة .. تحسس بيده طريقه حتى عثر على كرسيه فتهاوى عليه .. لم يعد بقادر على النهوض وفتح نافذة البيت الكبيرة لمنح الضوء حق الدخول .. ابتسم رغماً عن عجزه .. لم يعد يتذكر كم مرة تسللت رائحة الموت إلى أنفه وأحس بحرارته تنفذ إليه واستعد لرحلته الأخيرة معه على الجبهة .. ولكنه نجا كل مرة وأفلت من حصاره .. سخر من الموت وهو يهرب من قبضته المحكمة مرارا

بصورة أو بأخرى فى الحرب، والآن حان الدور على الموت ليحقق انتقامه فيجابهه وحيداً متهالكاً على كرسي قديم فى بيت خاوي تحجبه الجدران عن الناس والضوء .. لن يجد حقا فرصة أفضل لاقتناصه

رغم أنه يستشعر خطواته الخفية تقترب، لم يرتعد منه .. تآلف معه فلم يعد يرهبه .. لا يتذكر أول لحظة تعارف فيها مع الموت .. ربما عندما تم اختياره لينضم إلى مجموعة من رجال الصاعقة دورها القيام بعمليات شبة انتحارية خلف تحصينات العدو الغاشم .. وقف أمام قائده بتحفز يومها وقلبه ينبض بعنف .. يندفع فى عروقه دم الحماس وحب وطن ما زال بكراً داخله .. لم يكن يدري وقتها أن مجموعته التى بدأت بخمسة عشر جندياً ستتناقص للنصف قبل مرور أول أسبوعين .. وأن يد الموت لا تفرق بين عدو وصديق .. وأن فى قانون الحرب اللعين لا أرخص من الروح؛ خطأ واحد فقط يكفى لإسدال الستار وكتابة كلمة النهاية مرة واحدة وللأبد .. أكسبته الحرب مناعة ضد الخوف وهو الذي كان يرتجف من كل شئ قبلها .. من يقابل الفناء تتضاءل أمام أعينه للأبد مخاوفه الأخرى .. قالوا عنه أنه شجاع .. والبعض زعم أنه مجنون .. لا يهم .. وحده مجنون أو شجاع من يكسب الحرب .. هل كان عاقلاً عندما ركض وسط النيران لإنقاذ زميل حاصرته النيران أو توغل فى مناطق العدو بتهور دون حماية تسانده .. هل فكر حقاً وهو يندفع بمفرده للانتقام من عدو يتربص خلف ثكنة محصنة ظل يحصد من ورائها كثير من أرواح زملائه .. هل كان بكامل عقله وهو يروى بدمائه تراب وطن قد لا يمنحه العمر فرصة للعيش فوقه .. لم يفكر فى الأمر إلا بعد أن أنهى واجبه .. الميدالية التى أهملها داخل صندوق صغير فوق خزانته تشهد أنه جندي شجاع .. ابتسم رغم المرارة التى تهاجمه الآن .. قلدوه ميدالية، وسحبوا سلاحه، وتركوه وحيداً يواصل حياته فى حرب أوسع وأطول، وهو أعزل تماما .. ولكنه نجح .. استرد أرضه .. حارب لصوص السلطة والوطن ممن استولوا بلا حق عليها .. ساعد كل من لجأ إليه فاستحق سمعته الطيبة بين الناس .. ابنه مهندس يشار إليه بالبنان و صيته رغم غربته ينفذ للوطن .. كرموه ذات مرة فى أحدى الاحتفالات، شاركهم الاحتفال بسلام فقد أهميته، وأجرى معه كاتب شهير وقتها مقابلة لنشر سيرة حياته فى كتاب يحكي عن بطولات أبناء الوطن .. أرسل له نسخة من الكتاب بعدها ولكنه لم يقرأه .. لا يحتاج لذلك فسطور الكتاب محفورة فى ذاكرته على أي حال .. أشاد الكاتب به يومها وأكد أن قصته عظيمة وربما تصلح لعمل فني ولكنه لم يهتم، ولا يرغب في أضواء شهرة حمقاء .. لم يعد يشغل باله سوى البحث عن إجابة لسؤال واحد ثقيل ظل يتردد بداخله طوال تلك السنوات .. سؤال لم يجد له إجابة رغم أنه حاول كثيراً، وتمنى أن يوجهه للوطن الذى حارب من أجله لعله يجد إجابة شافية لديه .. لما لم تنتهي تلك الحرب اللعينة حقاً حتى الآن، ولما تتخذ كل يوم صور جديدة أشد ضراوة من سابقها، ولما يعاملهم الوطن أحيانا كأعداء دون جريرة منهم، ويدفعهم إلى حرب طويلة معه دون هدنة

ضوء صغير يتسلل ببطء من وراء النافذة .. يرى الآن بوضوح أكثر الصورة القديمة التي علقها بحرص على الجدار بجوار صورة ولده .. صورة باهتة تجمعه مع عدد من زملائه .. البذلة الرمادية والكاب القصير والسلاح الرمادي المعلق على الجانب الأيسر ..عيون تلمع ببريق الحياة وأجساد متحفزة وحماس يلهب الوجوه .. انفرجت شفتاه عن ابتسامة ضئيلة .. ما زال يتذكرهم .. بعضهم سبقوه وبعضهم أكمل رحلة المعاناة معه .. صحبة جمعها الدم صعب أن تفرقها الأيام أو تسقط من الذاكرة ..

انتبهت حواسه فجأة .. رفع رأسه واعتدل قليلاًعلى كرسيه .. شئ غامض يشعر به فى بيته الآن .. زائر ما تسلل إليه ببطء ويتجول فيه بحرية .. صديق قديم يدرك ذلك .. وحده جندي عجوز يميز خطواته ورائحته .. وحده جندي قديم تآلف معه فلم يعد يفزع لاستقباله .. استرخى فى كرسيه بصعوبة .. ابتسم دون وعي وهو يغمض عينيه بسلام .. تنفس بعمق .. و .. أعد نفسه أخيرا بارتياح شديد لنهاية الحرب

موعد حفل افتتاح فيلمه يقترب .. ويزداد معه توتره .. يومان ويحكم الجمهور على عمله الجديد .. بذل الإنتاج مجهوداً ضخماً .. حملة إعلانات كبيرة سبقت العرض ترويجا له .. عدد كبير من دور العرض تعاقدت مع الفيلم .. التوقعات تؤكد أن الفيلم خارج نطاق المنافسة ولكنه ما زال قلقاً .. سيحل الليلة ضيفاً على برنامج تلفزيوني ذائع الصيت .. سيتلقى عدد من المكالمات عليه أن يجيب عليها بهدوء .. والأهم .. أن يبدو واثقاً من نجاح عمله .. بعدها يعد نفسه لحضور العرض الخاص بفيلمه ومقابلة الجمهور مباشرة ..

لم يكتشفوا جثته إلا فى اليوم التالي أثر تغيبه عن الحقل الذى لم يتأخر عنه يوماً .. أنهوا الإجراءات سريعاً .. أرسلوا لابنه لكنه لم يتمكن من العودة فى الوقت المناسب .. شيعت جنازته وسط بضع عشرات من أهالي قريته .. لم يتخلف عنها أي من أهالي بلدته الصغيرة ممن تواجدوا وقتها ..

فى أسبوع عرضه الأول حقق الفيلم إيرادات ضخمة، شاهده آلاف المشاهدين فى دور العرض المختلفة، ونال استحسان الجمهور والنقاد

حضر النجم كالعادة العرض الخاص بفيلمه بصحبة زوجته رافضاً إجراء أحاديث مسبقة لأي من وسائل الإعلام المختلفة التى تسابقت لتغطية الحدث .. جلس بصحبة طاقم العمل داخل القاعة أمام الجمهور محاولاً الابتسام لكاميرات التصوير .. تلاشت الأضواء تدريجياً داخل القاعة، ساد السكون المكان وشاشة العرض الكبيرة تعرض أولى مشاهد الفيلم .. ارتسمت ببطء على الشاشة الضخمة أول مشاهد العمل حيث يقف البطل وسط

صحراء قاسية مرتدياً بذلة رمادية فقدت لونها وكاب قصير لا يكاد يحيمه من أشعة الشمس ويده تستقر بتحفز على سلاحه المعلق على جانبه الأيسر وسط مجموعة أخرى ترتدي الزى نفسه وتستعد للهجوم على ثكنة ما للعدو .. توالت المشاهد سريعاً فاندمج الجميع معها .. انتهى الفيلم أخيرا وسط تصفيق وتحية خاصة من الحاضرين لطاقم العمل

خرج النجم من صالة العرض ليتفاجئ باستقبال الجمهور الذي احتشد في الخارج لرؤيته .. مئات من الحاضرين تراصوا رغم البرد القارس خارج صالة العرض وبمجرد أن ظهر حتى اندفعوا لتحيته بحماس .. ابتسم النجم ابتسامته الجذابة المعهودة متطلعاً للجمع الصاخب، رفع يده ليرد التحية بينما استمر الجمهور المتدفق بالهتاف والتصفيق بحرارة شديدة .. للبطل

مؤامرة

أتطلع إلى ساعتي، الوقت يمر والطبيب لم يصل بعد .. وعدد المنتظرين داخل الوحدة الصحية يتزايد بصورة أكبر من قدرة القاعة الضيقة على استيعابهم .. اخترت مكاني بجوار النافذة طلبا للهواء الذي يأت ساخنا يزيد من معاناتنا، خاصة مع تعطل المروحة الصغيرة الوحيدة في المكان .. نضحت الأجساد سريعا بالعرق .. قطع الصمت رجل عجوز وهو يتنهد قائلا:

- طوابير وزحام في كل مكان .. أخاف أن أدخل بيتي يوما بطابور

ضحك عجوز آخر فبانت أسنانه الخربة قبل أن يردف:

- صدقني، أعاني من الطوابير داخل بيتي نفسه .. لدي سبعة أبناء مع زوجاتهم وثمانية أحفاد، وكلنا نسكن في بيت من طابقين لا تتجاوز مساحته مائة متر .. لا أدخل الحمام إلا بطابور

تابعهم شاب يرتدي نظارة قبل أن يقول:

- نتكاثر كالأرانب، لا هم لنا سوى الإنجاب كأننا على وشك الانقراض .. والدولة لا تتدخل، ولا تراعي ذلك عند تقديم خدماتها .. بدلا من زيادة الموظفين، تقلل أعدادهم يوما عن آخر، بل وتتساهل معهم، ولا تحاسب من يغيب أو يتأخر

أعترض شاب آخر بدين يقف بجانبي:

- نلوم الدولة كعادتنا على كل شئ .. ما ذنب الحكومة في تأخر أو غياب موظف، أو في زيادة أعدادنا .. تلك ثقافة شعب، علينا أن نلوم أنفسنا

رد الشاب ذو النظارة بحماس:

- مسؤولية الدولة أكبر .. لدينا فائض من الموظفين بالفعل، وبصورة لا نجدها في أي دولة .. لكن الحكومة تكدسهم في المكاتب والمصالح التي لا تحتاج إلى عمالة كبيرة، وتتجنب توزيعهم على نقاط خدمة الجمهور المزدحمة .. والنتيجة مزيد من المعاناة لنا .. أما ثقافة الشعب، فالحكومة تحاول بكل جهدها الحفاظ على ما وصل إليه الشعب من جهل حرصا على مصالحها

اعتدل الشاب البدين قبل أن يرد سريعا:

- وهل الدولة مسؤولة عن كل ما يقوم به أبناء الشعب هنا من حماقات .. هل نحملها مثلا مسؤولية تبوير الفلاحين لأراضيهم الخصبة وبيعها كأراض بناء رغم كل ما يحمله ذلك من خطر وحماقة، حتى بتنا نستورد معظم طعامنا

- الدولة ساعدت على ذلك بإهمالها .. لو ضربت بيد من حديد على كل من قام بأي مخالفة من البداية لما تجرأ أحد على تكرار الأمر

- لكنها وضعت قوانين تجرم ذلك بالفعل

هز الشاب ذو النظارة رأسه قائلا:

- قوانينا كلها حبر على ورق .. ولا يتم تطبيقها على أرض الواقع

تدخلت امرأة نحيفة تلك المرة وهي تردف:

- قوانين عرجاء لا تنفذ إلا على الغلابة .. ابني الوحيد هرب من التجنيد والآن يقضي عقوبة ثلاث سنوات ولا أستطيع أن أراه .. والمسؤول الكبير الذي سرق ملايين وقبض عليه وهو يتقاضى رشوة لإدخال طعام فاسد للبلد مؤخرا، تم الحكم عليه بعامين سجن فقط .. أيهما تسبب بضرر أكبر للدولة ويستحق عقاب أشد

مصمص كهل شفتيه قائلا لينهي الجدل:

- الفساد ينخر في الكل .. الحكومة والشعب

سادت لحظة صمت .. تنهد الشاب البدين معقبا:

- مازلت مقتنعا أن تلك ثقافة شعب .. الناس لا تقرأ ولا تعرف حقوقها، وبالتالي لا تطالب بها

شوح آخر يرتدي جلباب ممزق بيده قائلا:

- من لديه وقت لذلك؛ نعمل ليلا ونهارا كالبغال .. والمدارس والجامعات لا تخرج سوى جهلة يحملون شهادات بلا قيمة في سوق العمل

تمتم رجل طويل في منتصف القاعة قائلا:

- معك حق .. وصلنا إلى حال مؤسف في التعليم .. كنا نرسل المعلمين للدول العربية من قبل، والآن تجاوزونا بل وأصبحنا في مؤخرة كل التصنيفات العالمية التي تتعلق بالتعليم .. دول تاريخها أحدث من سيارتي القديمة، ومع ذلك نخجل من مقارنة أنفسنا بهم

- وصلنا إلى حال مؤسف في كل شئ .. تخيل أراضينا الزراعية تروى بمياه صرف صحي وتسمد –دون مؤاخذة- بفضلاتنا، وترش بمبيدات مسرطنة تستوردها الدولة بنفسها .. نأكل سموم دون أن ندري

- ليت الأمر اقتصر على ذلك، جشع التجار يقودهم لتخزين بعض أنواع الطعام لفترات طويلة حتى يرتفع سعرها، ويستخدمون مواد أكثر خطورة لحفظها

- جشع التجار لا نهاية له .. أبيع كيلو الطماطم الذي أزرعه في حقلي بنصف جينه للكيلو، لاتفاجئ بسعره في السوق في اليوم نفسه بخمسة جنيهات .. ولا أحد يحاسبهم

- كلهم فسدة .. الدواجن يضعون لها حبوب منع الحمل كي تسمن .. والغنم يأكل القمامة، والأسماك يلقوا إليها بالفضلات وأمعاء الحيوانات الميتة في مزارع الأسماك المختلفة .. طعامنا كله بات ملوث، ومياه الشرب يتم معالجتها بشكل بدائي للغاية حتى باتت أمراض الكلى لدينا هي الأعلى في العالم

سادت لحظة صمت، ردد شيخ:

- غاب الدين فظهر الفساد

هتفت قائلا:

- بالعكس .. نحن أكثر شعوب الأرض صلاة وصياما، لكن أكثرها سرقة وفسادا أيضا رغم ذلك .. لدينا مفهوم خاطئ عن الدين، نتمسك به بشدة دون أن نحاول أن نطبقه بأي حال على حياتنا .. مجتمع فاسد بطبعه

- بالفعل، الفساد طال الجيمع ..الرشوة تعطى علنا في كل المصالح الحكومية .. والتجار يرفعون سعر كل شئ دون تدخل من الدولة التي تسرق الجميع .. أولئك اليهود الملاعين .. نعيش في مستنقع كبير اسمه مصر

ضحك البعض، رد شاب قصير يقف أمامي:

- حتى اليهود الذين نسخر منها، أصبحوا أفضل منا في كل شئ .. القوانين عندهم تطبق على الكبير قبل الصغير، ولا نرى الفساد الذي نراه هنا

مصمصت عجوز شفتيها قائلة:

- غير معقول .. الصهاينة الملاعين

اعتدل الشاب القصير مؤكدا:

- لا شك في كل ما قلته .. عملت في تل أبيب لفترة ويمكنني أن أؤكد ذلك

ران صمت تام على المكان بمجرد أن نطق الشاب بجملته .. تطلعت إليه عيون جميع من في الصالة إليه .. قطع أحدهم الصمت بعد ثوان مرددا باستنكار:

- ذهبت إلى هناك للعمل .. وتفخر بذلك

هز الشاب كتفيه بلا اكتراث قائلا:

- لا أقول ذلك من باب الفخر، وإنما أقر حقيقة .. وكثير من المصريين والعرب يعملون هناك، آلاف منهم .. لو وجدنا عملا لائقا في بلادنا لما سافرنا هناك .. على العموم هم أفضل منا حقا في كل شئ

ارتسمت ملامح الغضب على وجوه البعض، والامتعاض على وجوه آخرين على الفور .. هتف العجوز الذي بدأ الحوار بحدة وهو يشيح بيده:

- من قال ذلك! .. بلدنا جميلة، أم الدنيا بأكملها .. من ينكر ذلك أحمق أو مجنون .. يكفي أنها الدولة الوحيدة التي ذكرت في القرآن، وكل الكتب السماوية

هتف الشاب ذو النظارة وقد تجهمت ملامحه:

- ولدينا أقدم حضارة في العالم .. لا تقارنا بأحد .. نحن من علمنا العالم كله

تدخل الشاب البدين معقبا:

- وشعبنا أطيب شعب .. شعب معروف بتدينه وتسامحه طوال تاريخه

ردد أحدهم من آخر القاعة:

- نحن قلب العالم دون مبالغة .. أخصب الأراضي لدينا، وصحارينا مليئة بالكنوز .. ويظهر بيننا كل يوم علماء يبهرون العالم

لم يجادلهم الشاب القصير .. لبرهة ران على المكان صمت متوتر .. تحرك الشاب قليلا وهو يعبث في جيوبه، قبل أن يخرج بعدها لتدخين سيجارة .. لاحقته العيون بتحفز وهو يبتعد، بمجرد أن خرج حتى هتف العجوز وهو يتابعه بنظراته ساخطا:

- اليهود الملاعين .. لن يتوقفوا عن غسل عقول شبابنا، لكننا لن ننخدع لهم، ولن نسمح لهم بالإساءة لبلدنا الحبيبة

- نحن لا نقارن بهم ..

- نعم .. بلدنا عظيمة وستظل كذلك مهما حاولوا طمس تلك الحقيقة أو تثبيط الناس .. كما أنهم السبب في كل ما نمر به؛ مؤامراتهم لا تنتهي

ارتفعت همهمة موافقة من الجميع، قبل أن تخرج الممرضة فجأة لتعلن للجميع ببرود:

- الدكتور أعتذر ولن يأت اليوم

ران الصمت لبرهة .. ثم بدأنا نجر أقدامنا للخارج باستسلام، وهمهمات غضب تتصاعد من الجمع الذي انتظر لساعات دون طائل .. هتف العجوز:

- بالطبع مشغول بعيادته الخاصة، لا وقت لديه لنا .. لا فائدة

تبعت العجوز وهو يخرج من باب الوحدة حيث استقبلتنا أشعة الشمس الحارقة وضجيج الشارع المزدحم، ودخان كثيف بعد أن أشعل أحدهم النار في صندوق القمامة الملاصق للوحدة .. لا مفر من التوجه لعيادة خاصة رغم التكلفة العالية التي قد ترهق ميزانيتي، لم أعد أستطيع تحمل الآلام التي تهاجمني من الأمس .. انتظرت سيارة أجرة أمام باب الوحدة، تابعت الجمع الحانق يغادر الوحدة واحدا تلو الآخر، وهم يوجهون نظرات احتقار وعدائية شديدة للشاب القصير الذي يواصل تدخين سيجارته بالخارج

نقطة تحول

توقعنا القبض عليه في أي لحظة

زادت جرائمه وتجاوزت كل حدود، فلم يعد يمكن السكوت عليها

كما بدأ البعض بالنبش في ماضيه الأسود، لهذا توقعنا أن يسقط سريعا كما صعد بسبب أحد جرائمه الكبرى، وما أكثرها .. وانتظرنا تلك اللحظة بلهفة

بدأ حياته كمذيع بسيط في التلفاز، لا أحد يعلم كيف تحصل على الوظيفة؛ لم يكن يتمتع بذكاء كبير أو يمتلك موهبة الكلام بأي حال، بالكاد نجح في الثانوية العامة وتخرج بصعوبة كآلاف غيره بعد أن التحق بصعوبة بكلية الخدمة الاجتماعية وعانى فيها، وفشل في كل الوظائف التي التحق بها لاحقا، قبل أن يطل علينا عبر شاشة التلفاز الحكومي المسيطر على الساحة الإعلامية وقتها .. ويقال أن والده دفع مبلغا كبيرا من أجل ذلك

لسنوات عمل كمذيع في عدة برامج لم تلفت انتباه أحد على أي حال .. أحداها برنامج سياسي كان يصيبنا بالنعاس، ويعتمد فيه على الضيوف ممن يتولوا دفة الحديث طوال وقت البرنامج فلا يظهر للجمهور ضحالة فكره .. لكن شهرته بين أبناء قريتنا زادت رغم ذلك؛ بالنسبة للبسطاء هنا يعد أي شخص يظهر على التفاز من دائرة المشاهير .. واستغل ذلك جيدا .. وخلال عدة سنوات جمع ثروة صغيرة .. أوهم الجميع بعمق صلاته مع كبار رجال الدولة فكان يتلقى من البسطاء مبالغ كبيرة مقابل إنهاء أوراقهم المتعثرة وشكاويهم التي لا تصل لآذان المسؤولين، وأحيانا للتوسط للحصول على بعض الامتيازات الخاصة كتعيين شخص في الحكومة .. وعندما أدرك الجميع خداعه مع مرور الوقت بعد عجزه عن تحقيق وعوده للمتعاملين معه، اختفى من القرية فاشترى منزلا كبيرا في العاصمة .. وبدأ ينقل نشاطه هناك

كان يمكن أن يستمر كمذيع مغمور إلى نهاية عمره، على الأقل هذا ما توقعناه .. إلا أننا تفاجئنا به في سنوات قليلة يطل علينا بهيئته الجديدة، تلك المرة عبر الفضائيات بعد أن أسس قناته الخاصة ..

كانت تلك نقطة التحول الكبرى في حياته، لا أحد يعلم كيف تحصل على الأموال اللازمة لفتح قناة فضائية، خاصة مع التكلفة الضخمة لتشغيلها .. يقال أنه تعرف على إعلامية ناجحة أثناء فترة عمله الأولى؛ مطلقة من عائلة ثرية، أدركت بذكائها ضعف شخصيته وسهولة تطويعه فقررت أن ترسم حياتهما معا، عانت كثيرا من الرجال قبله، فقررت أن تكون صاحبة اليد العليا في زواجها اللاحق، وكان هو الرجل المناسب ..

استجاب لها فطلق زوجته الأولى، شجعته على التخلص من عمله الذي لا يلبي طموح أي شخص يبحث عن الشهرة الحقيقية .. وقفت بجواره وهو ينشئ محطته الإذاعية الأولى، ودفعته لاقتحام عالم السياسة المشتعل في تلك الفترة بعدة برامج لم تنجح كثيرا .. خاض معركته الأولى في انتخابات مجلس الشعب ففشل بسبب سمعته السيئة هنا، لكنها لم تتخلى

عنه .. نجحت أن توثق علاقته برجال الحزب الحاكم وقتها والمسيطر على مقادير البلد، قدم نفسه على أنه صوت الحكومة غير المباشر، تزامن ذلك مع كثرة وانتشار وزيادة شعبية عدد من الأصوات الإعلامية المنددة بالنظام الحاكم .. تحصل على التراخيص اللازمة لإنشاء قناة فضائية في وقت قياسي، خاصة مع ظهور قنوات تهاجم الحكومة بقسوة، أحداها قناة عربية ذات تمويل ضخم جذبت انتباه الناس على الفور، مما يستلزم من الحكومة دون شك البحث عن مزيد من القنوات التي تدافع عنها .. تحملت زوجته جزء كبير من تمويل القناة، ليظهر في برنامجها الرئيس الذي يستمر لعدة ساعات يتحدث فيه عن كل شئ تقريبا..

لم تكن تدرك أنه سينقلب عليها سريعا، خاصة بعد أن رسمت طريقه فلم يعد بحاجة لمساعدتها .. لفترة ترنحت القناة فلم تحصل على الشعبية المطلوبة .. اجتذبت القناة إعلانات رجال الأعمال الموالين للحكومة رغم ذلك فاستمرت رغم رداءة ما تقدمه .. وثق صلاته بالحكومة باستضافة رجال الدولة، وهاجم خصوم النظام الحاكم بضراوة .. ظهر في بعض حلقاته بالجلباب ليعزز صورته كإعلامي يمثل صوت الشعب، بل عاد للتحدث بلهجته الريفية مدعيا التبسط مع الناس، ولم يلتزم بأي ضوابط .. وعندما هاجمه البعض بسبب سطحية ما يقدمه، أدعى أنه ينتهج أسلوب عفوي وتلقائي للتقرب من الناس، مرددا دوما حكمته المفضلة "خاطبوا الناس على قدر عقولهم" .. تخلص من زوجته حتى لا تشاركه نجاحه، بل رفض الإنفاق على ابنه الوحيد منها ..

مع مرو الوقت حاول ترسيخ صورته كرمز وصوت إعلامي للبسطاء .. في انتخابات مجلس الشعب التالية نجح بسهولة تلك المرة بعد دعم الدولة له، وانسحاب المرشح الرئيسي أمامه لأسباب غامضة .. توقعنا رغم ذلك أن تنتهي تلك الظاهرة سريعا ويلقى القبض عليه، خاصة بعد قضايا السب والقذف التي انهالت عليه نتيجة تماديه في تجريح وسب خصوم الحكومة وبعضهم شخصيات بارزة .. اكتسب عداوة كثيرون لكنه اكتسب أيضا صداقة البعض خوفا من لسانه، خاصة أنه مقرب من الجكومة كما يعلم الجميع، فضلا عن الحصانة التي يتمتع بها وتمنع ملاحقته قضائيا مهما قال أو فعل .. انهالت الإعلانات على قناته .. عاد ليتقاضى مبالغ من البسطاء لإنهاء أوراقهم بعد أن أصبح عضوا تلك المرة في مجلس الشعب .. ومع ازياد الاتهامات الموجهه إليه بالجهل وضحالة الفكر، وسطحية آرائه وتناقضها المثير للسخرية أحيانا، خرج علينا فجأة ليدعي حصوله على الدكتوراه من جامعة عريقة في الخارج، وبات لا يقرن اسمه سوى بلقب دكتور .. لكن نقطة التحول التالية في حياته جاءت بعد توليه رئاسة أحدى الجمعيات الإعلامية الشهيرة، ليحصل على أرض بناء من الدولة بمقابل رمزي لإقامة مشاريع سكنية لأعضاء الجمعية وأسرهم، وتقاضى بالفعل مقدمات ضخمة من الراغبين في الحصول على وحدات سكنية، ماطل بعدها في البناء واستثمر الأموال لسنوات، قبل أن يعلن تعثر المشروع لصعوبة الحصول على التراخيص اللازمة، ويبيع الأرض بعدها بعشرات الملايين في أضخم صفقة قام بها في حياته ..

لم ينعم كثيرا بالحصانة بعد أن قامت الثورة وانهارت الحكومة، وتم حل مجلس الشعب استجابة للضغط الشعبي .. ومع الفوضى الأمنية التي أعقبت الثورة، لم يتم التحقيق في جرائمه السابقة .. تنوعت مواقفه وآرائه في تلك الفترة حتى لقبه البعض بالحرباء، هاجم الحكومة ليكسب ود الشعب الثائر، ثم عاد ليهاجم الثورة بضراوة بعد أن أيقن أن النظام السابق ما زال يحكم بقبضته على البلد، بل ووصل الأمر به إلى إهانة شهداء الثورة .. آثارت آرائه غضب معظم الجماهير وبات المادة الأكثر تندرا في مجالس الناس بسبب أقواله وتصرفاته الغريبة أمام الكاميرات وسخافة ما يقدمه .. أقامت مطلقته عدة دعاوي قضائية للمطالبة بنفقة ابنها، حصلت على حكم ضده بدفع نفقة ضخمة لكنه لم يلتزم بتنفيذه، كما حصلت على حكم بحبسه بعد أن طالها بالسب والقذف في برنامجه دون أن ينفذ الحكم أيضا .. تلا ذلك عدة أحكام ضده بالسب والقذف، واتهامات وبلاغات من البسطاء بالنصب عليهم بعد عجزه عن إنهاء معاملاتهم ورفضه رد المبالغ التي تقاضاها مقابل ذلك .. فضلا عن إثبات النيابة لزيف شهادة الدكتوراه التي يحملها والتي تقدم بها إلى أكثر من جهة .. فشل في أول انتخابات بعد الثورة والتي لم تخضع لسيطرة الحكومة كالمعتاد، وتقدم نائب ببلاغ ضده بسبب أرض الجمعية التي استولى عليها، والتي اتضح أن قيمتها تتعدى المليار جنيه، في واحدة من أكبر صفقات الفساد وقتها، أعقبها صدور حكم بإهانته لرئيس الدولة المنتخب بل وتحريض الدول الخارجية ضده .. لكن الغريب أنه ظل رغم ذلك يظهر يوميا على شاشة قناته، وبدا كأنه محصن أكثر من ذي قبل ..

زاد برنامجه شهرة .. ليس بسبب قيمته، ولكن لخروجه عن المألوف وضحالة ما يقدمه، فتحول إلى مادة للمزاح بين عامة الشعب .. وتحول هو نفسه إلى أيقونة ضحك تنافس أشهر ممثلي الكوميديا، وباتت وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة تتنافس في نشر كوميكس وفيديوهات تثير الضحك لآرائه الغريبة وتصرفاته المخجلة على الهواء، مما دفع البعض لمتابعته فقط من باب التسلية والفكاهة .. ورغم ذلك، زاد تبسطه في الكلام، وزادت هفواته الغريبة .. حتى أنه قرر يوما الترشح في انتخابات رئاسة الجمهورية، مدعيا أن له شعبية كبيرة بين أبناء شعبنا، قبل أن يتراجع سريعا ..

مع عودة النظام السابق سريعا لتولي مقاليد الحكم، وفشل الثورة التي هاجمها بضراوة، زاد نجمه صعودا .. تقدم في انتخابات مجلس الشعب التالية فنجح بسهولة .. زادت سطوته، لكنه بحماقته دخل في خلافات مع عدد من كبار رجال الأعمال من المقربين للسلطة بسبب اندفاعه غير المحسوب، كما أحرج الحكومة عدة مرات بدفاعه عنها ببراهين وأدلة ملفقة تثير التندر والسخرية .. ومع زيادة الأحكام القضائية ضده، وآخرها حكم بحبسه بسبب التزوير في شهادة الدكتوراه التي يحملها .. توقعنا أن يسقط سريعا كما صعد، ويدفع ضريبة كل، أو على الأقل جزء، مما ارتكبه من جرائم ..

حدث أخيرا ما توقعناه .. لكن لسبب آخر لم نتخيله ..

كانت نقطة التحول تلك المرة انتشار صور له وهو يلتقي السفير الإسرائيلي، مرحبا بالتطبيع مع الكيان الصهيوني .. تعرض لحملة دعائية ضخمة لم تكن الأولى على أي

حال بسبب تأييده للتطبيع عكس إرادة الشعب .. كان يمكن أن يمر ذلك مرور الكرام، لكن الحكومة التي أدركت أنه لا يمكنها الاعتماد عليه مع كثرة زلاته، وخروجه عن الخط المرسوم باندفاعاته الحمقاء، مما يسبب لها الحرج أحيانا، خاصة مع ارتباط اسمه بإسرائيل والذي يقلل من أسهمه كثيرا كصوت إعلامي موجه للشعب، ورغبتها في تحسين صورتها أمام الناس، قامت بتصعيد الأمر على الفور واستغلت سقطته تلك المرة .. وصل صدى ما قام به سريعا إلى مجلس الشعب بفضل عدد كبير من خصومه ذوي النفوذ تحت قبة البرلمان .. عقدت جلسة طارئة في مجلس الشعب، ليقرر بالإجماع إسقاط عضويته في سابقة يندر أن تحدث .. المثير للدهشة أن المجلس نفسه الذي رفض لسنوات طويلة رفع الحصانة عنه لمحاكمته في القضايا العديدة التي تورط فيها، وبعضها قضايا هزت الرأي العام، يسقط عنه العضوية بعد مناقشة لم تستمر أكثر من دقائق، رغم أن ما قام به لا يمثل بأي حال جريمة رسمية، في ظل معاهدة السلام بين البلدين وترحيب الدولة بالتطبيع، ورغم ارتباط معظم رجال الأعمال في المجلس بصفقات لا يمكن إخفاءها مع إسرائيل .. المثير أن المجلس نفسه الذي أسقط عضويته دون شفقة، استقبل الرئيس بعدها بعدة أيام فقط بالتصفيق والهتاف، رغم ذراعيه الممدودة بكرم بالغ للمنظمات والهيئات الداعمة للكيان الصهيوني، والتسهيلات غير المسبوقة التي يقدمها لهم للعمل داخل البلاد، بل ويقوم بالإجماع في الجلسة نفسها بالتصديق على أحدى الاتفاقات الرسمية المتزايدة مع دولة الاحتلال

سقط سريعا إذن كما صعد، اختفى بعدها لفترة عن الأنظار، خاصة مع إغلاق قناته .. ولسنوات بعدها انتظرنا تنفيذ الأحكام القضائية التي صدرت ضده دون جدوى، بل تفاجئنا بحفظ كثير من البلاغات، ومنها بلاغ قدمه ابن عمي بعد أن نصب عليه بمبلغ كبير في سبيل إصدار رخصة بناء لأرضه .. ما زال يعيش في قصره الباذج ويتنقل من مكان لآخر بحرية بل وتزوج للمرة الثالثة من مذيعة سابقة في قناته .. يقال أن الحكومة لا تنسى رجالها المخلصين بأي حال، وهو ما تأكدنا منه .. انتهى دوره مع القضاء على أي صوت للمعارضة، وازدحام الساحة الإعلامية بالمناصرين للحكومة، لكنه يظل أيقونة للنظام ترفض التخلي عنه .. و ..

ولم نعد نتراهن على موعد القبض عليه رغم كثرة الأحكام ضده .. بل نتراهن تلك الأيام حول نقطة التحول التالية التي قد تعجل بعودته المظفرة إلى الواجهة الإعلامية للبلد مجددا

عميل

اسمي "بنجامين ليفي" .. لتتذكروا ذلك الاسم جيدا، سأكون يوما من مشاهير دولتنا وأبطالها .. تمنيت طوال عمري الانضمام إلى جهاز المخابرات الإسرائيلية "الموساد"؛ مصدر فخرنا وذراعنا العليا القادرة على أن تمتد إلى أي مكان .. اجتهدت كثيرا في عملي كضابط أمن من أجل تحقيق ذلك، تطوعت في كثير من العمليات الجريئة داخل أراضينا المكتظة بالإرهابيين الفلسطينيين بل ونجحت في تصفية بعضهم، تلقيت التدريبات اللازمة والتي استمر بعضها لسنوات، واتقنت أكثر من لغة .. أخيرا اجتزت كافة الاختبارات بعد أن رسبت مرة بسبب ضعف مهاراتي التكنولوجية .. وها أنا ذا أخطو أول خطواتي داخل مقر الموساد .. لتبدأ حياتي الحقيقية في خدمة الكيان

أحاول إخفاء حماسي الذي يكاد يبلغ عنان السماء فلا يبدو على وجهي سوى قناع من الهدوء الظاهر، كما يليق بعميل محترف .. يرتجف جسدي من فرط الإثارة رغم ذلك وأنا أمر عبر البوابة الأمنية للمقر .. طموحاتي تتسع لتتجاوز كل حدود، ونقطة البداية لتحقيقها هنا، والشهوة الجنونية التي تتملكني من أجل وطننا لن تجد صدى إلا عبر عملي في أكبر أجهزتنا الأمنية .. هنا بوابتي السحرية نحو تحقيق معظم أحلامي وأكثرها جنونا

لم يكن الترحيب كما توقعته .. استقبلني مندوب فور أن حضرت في موعدي تماما، ألقى تعليمات سريعة عن المكان، وأخرى عن طبيعة العمل كنت أعرفها بالتأكيد .. اصطحبني لمكتبه .. واصل تكرار بعض النصائح والتعليمات بصوت آلي في الطريق وحماسي يشتعل .. طرح عدد من الأسئلة في مكتبه وأجبت عنها بصراحة، دون بعض البيانات على جهاز الحاسوب الخاص به .. قبل أن يأمرني باتباعه لاستلام مهام عملي ..

أغالب لهفتي دون جدوى وأنا أتبعه كظله تاركا مسافة صغيرة بيننا .. هل أكلف بأولى مهامي بتلك السرعة .. توقعت أن أبدأ بالقاهرة، طلبت ذلك منه ولم يعترض .. طوال عمري أحلم بالعمل هناك، مات عمي في اليوم الثامن من حرب تشرين، وصورته المعلقة على جدران منزلنا لا تبارح خيالي، وأبي كان ضابط مخابرات ناجح هناك، وطالما حكى عن مغامراته .. والوعد الآلهي الذي طالما رددناه صغارا "من النيل إلى الفرات" يدوي طوال الوقت في أذني .. ولا يمكن أن يتحقق إلا بالبدأ من المكان الذي شهد هواننا، ثم وحدتنا وتشتتنا قبل أن نعود أكثر قوة إلى منبع الأجداد .. لهذا السبب اتقنت العربية تماما بل وزرت وطننا القديم –والمستقبلي عما قريب- هناك كسائح عدة مرات .. أغالب توتري رغم ذلك، تتوادر الصور والأحلام في رأسي فلا أمنعها من الاسترسال .. أتساءل بلهفة عن طبيعة مهمتي الأولى .. ضابط اتصال، تجسس، تخريب .. أو ربما اغتيال، لم أتلقى التدريب اللازم لذلك .. لا يهم .. لدي تصميم لا يلين على النجاح في أي مهمة أكلف بها مهما كانت الصعوبات ..

صعدنا طابقين، واجتزنا سريعا عدة ممرات .. توقف المندوب أمام مكتب مغلق .. وصلت أخيرا إلى مكان عملي كما قال .. تطلعت للباب لبرهة، لا بأس أن يكون لي

مكتب أستريح فيه بعد عناء كل مهمة، أو لعلي سأتلقى تدريب إضافي هنا .. لم يطرق الباب، فتحه بهدوء وخطا نحو الداخل .. دلفت وراءه .. وهناك تبعثرت توقعاتي ..

قاعة كبيرة لا يوجد بها سوى نافذة واحدة مغلقة، مساحتها تقارب مائتي متر، أحصيت في ثوان أربعة عشر موظفا، كل منهم مشغول بالتطلع إلى شاشة الحاسوب الخاصة به، وثلاثة موظفين يعملون على أجهزة أخرى غريبة لم أتبين من النظرة الأولى ماهيتها .. لم يلتف أحد منهم إلي .. أشار المندوب إلى جهاز حاسوب ومقعد فارغ، ردد بلهجة صارمة:

- يمكنك استلام عملك الآن، في مصر كما طلبت .. وسيعاونك زملائك في المكتب .. لا نريد أي أخطاء

لوهلة لم أفهم .. تقدم مني موظف ضئيل الحجم اكتسى شعره بالبياض مرحبا بي، أكبر الموظفين سنا هنا ورئيسهم كما يبدو .. بينما أسرع المندوب بالانصراف .. ورغم تدريبي الفائق، تسمرت في مكاني لثوان عاجزا عن اتخاذ أي رد فعل سريع ومناسب .. لم أسمع ما قاله الموظف أو أهتم بيده الممدودة نحوي لمصافحتي .. قبل أن أندفع من الغرفة محاولا اللحاق بالمندوب

لم يتوقف المندوب وأنا أناديه، لحقت به سريعا، سرت بجانبه هاتفا:

- من المؤكد أن هناك خطأ ما .. تدربت كي أكون عميل ميداني .. ذلك النوع من العمل الذي لا يمكن أن يقوم به أي شخص عادي .. لم أتوقع أن ينتهي بي الأمر على كرسي داخل مكتب كأي موظف

ردد المندوب دون أن يتوقف:

- لست موظفا عاديا .. ثم أنك طلبت العمل في مصر .. تلك طبيعة عملنا هناك

دلف إلى المصعد فاتبعته .. تطلع إلى وجهي الذي تعلوه الدهشة .. تنهد .. هز رأسه قائلا:

- يبدو أن لديك صورة خاطئة عن طبيعة ما نقوم به .. الأمور تتغير

- لا أفهم .. تدربت طويلا للقيام بمهام عملي كعميل وجاسوس على أرض الواقع .. توقعت أن أكلف بالسفر إلى هناك في أقرب وقت للبدء في تنفيذ مهامي

- لن نجني أي فائدة من سفرك إلى هناك، تلك الأمور تكلف الدولة مبالغ طائلة دون جدوى .. كما أننا لا نحتاج إلى عمليات ميدانية في كل دول العالم كما تظن

وصلنا إلى مكتبه .. تبعته كظله.. استرخى على كرسيه قائلا:

- أعلم ما يدور في ذهنك .. العالم يتغير .. يبدو أنك تدمن مشاهدة كثير من الأفلام السخيفة، وتقرأ كتب عفا عليها الزمن .. إرسال العملاء يكلف الدولة أموال باهظة للتغطية على وجودهم هناك وضمان سلامتهم، تكلفة أكبر مما تتخيل، ونحن نمر بمرحلة تقشف .. ثم ما الذي يمكن أن يقوم به عميل محترف لدينا هناك على أي حال؟

- أشياء كثيرة بالطبع .. يمكنه على سبيل المثال التجسس على الجيش هناك

- نفعل ذلك بسهولة دون أن نغادر المبنى هنا .. يبتاعون معظم أسلحتهم من دول صديقة على أي حال، ونحصل على كافة البيانات اللازمة التي نحتاجها منهم .. كما لا يمكنهم تطوير أسلحة دون معرفتنا؛ يحتاجون إلى استيراد قطع غيار ومعدات خاصة من الخارج للبدء بذلك، وهو ما سنعرفه بالتأكيد .. والأقمار الصناعية ترصد تحركاتهم وتدريباتهم .. وبعض الجنود والضباط يحبون الثرثرة ونرصد مكالمتهم، ونجحنا في تجنيد عدد منهم بسهولة

- وماذا عن القيادات؟

هز رأسه قائلا:

- مشغولون بالسلطة وتولي المناصب المدنية الهامة في الدولة كعادتهم، والقضاء على معارضيهم ، ونحن ندعمهم .. كما أن مشاريعهم الاقتصادية المتنامية التي تلتهم السوق يوما عن يوم تشغل كل اهتمامهم .. الجيش أكبر لاعب اقتصادي داخل بلادهم الآن

- ماذا عن أعمالنا التخريبية لإضعافهم .. يمكنني القيام بها بسهولة، وتحتاج بالتأكيد إلى التواجد هناك

شوح بيده قائلا:

- لن نحتاج لذلك كالسابق .. لديهم بالفعل مئات الموظفين بالإضافة إلى عشرات المسؤولين في كل قطاعات الدولة يقومون بتلك المهمة على أكمل وجه، بل ويخصصون لهم رواتب لذلك، ودون أي توجيه منا .. صدقني، مهما فعلنا لأذيتهم لن نكون أكثر إبداعا منهم في تحقيق ذلك الهدف .. الفساد بات يسري في دمائهم

- يمكننا نشر الأفكار الهدامة بين الناس

- لا داع لذلك .. السينما تتكفل بالأمر، والإعلام كذلك، لا يرددون إلا ما تمليه عليهم السلطة .. والتي ترغب بدورها في الحفاظ على ما وصل إليه الشعب من جهل

- يمكنني العمل هناك للقضاء على اقتصادهم .. تخريب الزراعة مثلا؛ أمنهم القومي

تراجع أكثر في كرسيه قائلا:

- لم يعد لدينا ما يمكن إضافته في هذا الملف .. قاموا بتبوير أراضيهم الزراعية على أي حال، وحولوا الأراضي الخصبة التي طالما أمدتهم بالغذاء لآلاف السنين إلى أراض بناء .. وما تبقى من أراض تعاني الإهمال وتروى بمياه ملوثة بالإضافة إلى استخدام مبيدات مسرطنة يستوردون معظمها منا والدول الصديقة بأسعار زهيدة .. لا شئ بإمكاننا فعله لنجعل الصورة أسوأ

- لا يتبق سوى الاغتيالات .. لن أحتاج إلى وقت طويل لتلقي التدريبات اللازمة

- ومن نغتال هناك .. أفضل علمائهم يهاجرون للخارج للعمل في الجامعات والشركات والمعامل التي نسيطر عليها بالفعل .. والمسؤولين هناك لا يمكن التضحية بهم بأي حال، لن نجد أفضل منهم لخدمة مصالحنا

- ماذا عن الجماعات الإرهابية والمتطرفين هناك؟

- وهل رأيتهم يوما أطلقوا رصاصة واحدة ضدنا .. يوجهون أسلحتهم إلى مجتمعاتهم، رغم أن هدفهم المعلن هو محاربتنا، ويخدعون العامة بذلك لاكتساب شعبية بينهم .. كما أنهم يرسخون الصورة السلبية التي نريدها عنهم .. ونستغل ذلك جيدا لتشويه صورتهم في الخارج

لبرهة لم أتكلم، لم أجد ما أقوله .. عندما لاحظ إحباطي، تنهد قبل أن يميل على مكتبه تجاهي وهو ينصحني بلهجة أبوية:

- صدقني .. نحن نفعل ذلك لمصلحتك .. حماية عملائنا وضمان سلامتهم والتغطية على عملياتهم في الخارج يكلف الدولة أموال طائلة دون طائل كما قلت لك .. ثم أننا نخاف على عملائنا من المعيشة في أوطانهم، أنتم ثروتنا القومية التي لا نرغب في تبديدها بسهولة، ولن نسامح أنفسنا إن فعلنا .. المياه في بلادهم غير صالحة للشرب؛ محطات تحلية المياه لديهم تعاني الإهمال من عقود ولا تقوم سوى بمعالجة أولية للمياه، والمصانع والشركات والناس يلقون مخلفاتهم في مياه النيل فيزيدوا الأمر سوءا، وأنت نفسك عانيت من متاعب في الكلى بعد عودتك من هناك آخرة مرة .. والهواء ملوث .. ومعظم أغذيتهم المستوردة لا تصلح للاستخدام الآدمي، والتجار يستخدمون مبيدات ومواد مسرطنة لحفظ الطعام في المخازن لفترات طويلة .. كما أن مستشفايتم سيئة، وأطبائهم لا يهمهم سوى الكسب المادي وأخطائهم الكارثية لا تخضع للمسائلة، حتى أدويتهم تنقصها المادة الفعالة، ومعدلات الجريمة مرتفعة لديهم بسبب تراخي الأمن .. لا يمكن في ضوء كل ذلك أن نخاطر بحياتكم الثمينة هناك ونحن نحقق معظم النتائج التي نريدها ونصل إلى كثير من أهدافنا من داخل مكاتبنا هنا

سكت قليلا .. قلت أخيرا دون اقتناع:

- من الخطأ أن لا يكون لدينا عملاء هناك رغم ذلك

- من قال ذلك .. لدينا فائض ضخم من العملاء هناك، أكبر مما تتوقع .. عملاء يعملون بشكل مخلص جدا لدولتنا .. دون أن يتلقوا منا أي مقابل .. بل لدى بعضهم التزام بمبادئنا الصهيونية يضاهي بل يفوق التزامنا نحوها، وهو ما يدهشني، حتى نظنهم مخلصين لدولتنا أكثر منا .. الفارق فقط بينك وبينهم أنهم لا يدركون أنهم عملاء

لدقيقة فكرت فيما قاله .. نهضت وأنا أقول بعزم:

- حسنا .. أريد العمل في أي دولة عربية أخرى إذن .. ما زلت أتقن العربية وأؤمن بنجاحي في أي مكان

هز كتفيه قائلا دون اهتمام:

- حسنا .. كما تريد .. لكل دولة عربية مكتب مماثل لدينا .. اختر الدولة التي ترغب بالعمل بها وأصعد لاستلام مهام عملك على الفور

فساد

اهتزت العربة بهم ..

صاح أحدهم: اللعنة على المطبات ..

تنهد آخر معقبا: شوارعنا سيئة .. حالها كحال البلد .. إهمال يفوق الوصف

عاد الأول ليكمل: ليت الأمر اقتصر على الإهمال .. السرقة أسوأ .. الشعب يسرق نفسه وكل شخص يود أن يمد يده إلى جيب غيره لينزع ما به .. ولا تدخل من الدولة التي تسرق الجميع ..

ضحك الأول، مصمص شفتيه قبل أن يؤكد:

معك حق .. تخيل .. بالأمس حصدنا محصول الطماطم في حقل ابن عمي .. رفض التاجر دفع أكثر من نصف جنيه عن كل كيلو .. في اليوم نفسه كان سعر كيلو الطماطم في السوق يتجاوز سبعة جنيهات .. اللصوص .. الفلاح يتعب ويهلك نفسه في الزراعة، ويدفع أحيانا كل ما يملك ليغطي ثمن المبيدات والتقاوي وأجور العمال، ثم يقبض ملاليم في النهاية .. والمكسب كله للتجار الملاعين .. تاجر جملة يشتري بنصف جنيه ليبيع المحصول بأربعة أضعاف ثمنه لتجار نصف الجملة، ليبيعوها بدورهم بضعف ثمنها للبائعين الجائلين .. والبائع الجائل الذي يشتري بأربعة جنيهات، لم يعد يقبل بدوره هامش ربح بسيط كالسابق، فيقرر بيعها للمستهلك المسكين بسبعة جنيهات في سوق المدينة الرئيس .. وفي الأماكن والأسواق الأخرى البعيدة قد يصل سعرها إلى عشرة جنيهات أو أكثر .. وكل البضائع على نفس المنوال .. والكستهلك يحصل على السلعة بأضعاف ثمنها الأصلي .. والدولة لا تتدخل .. وحجتها أن السوق عرض وطلب .. أي عرض وطلب في أقوات الناس، ومع هامش الربح الضخم غير المنطقي الذي يفرضه التجار على الناس .. هل نتوقف عن الأكل مثلا ..

ضحك البعض .. تنحنح أحدهم بعد دقيقة قبل أن يقول:

- ليس التجار وحدهم، الحرفيين أيضا لم نعد نسلم من بلطجتهم .. تحتاج لصبر أيوب وأموال قارون للتعامل معهم .. من عدة أشهر كان حفل زفاف ابني، قررت قبلها تجهيز غرفة في المنزل ليتزوج بها، طلبت من النقاش دهانها، وبعد أن رضخت للمقابل الذي طلبه، عمل ليوم واحد فقط ثم اختفي فجأة .. اكتشفت لاحقا أنه يعمل في أكثر من مكان في آن واحد .. بمجرد أن يتصل به زبون حتى يقبض منه مقدم العمل، يعمل ليوم أو اثنان عنده حتى يتصل به زبون آخر، فيتركه ليعمل مع الزبون الجديد، ولا يخبره بالطبع أنه مشغول في عمل لم ينتهي منه بعد، حتى لا يتركه الزبون الجديد ويبحث عن حرفي آخر، وهكذا يعمل مع أكثر من عميل في الوقت نفسه .. ولا يمكنك طرده لأنه بدأ العمل بالفعل وقبض المقدم، ولا يعود إليك إلا بعد أن تتصل به أكثر من مرة .. والغرفة التي كانت تحتاج لأربعة أيام، انتهى العمل بها بعد ثلاث أسابيع .. والشروخ في الجدران التي

عانيت منها، ودفعت له مبلغا إضافيا من أجل معالجتها، عادت لتظهر بعد ستة أشهر فقط من زواج ابني.. والأدهى من ذلك، أنه صمم على شراء المعدات وعلب الدهان من بائع بعينه بحجة أنه يقدم له تخفيضا، لاكتشف لاحقا أنه باعني إياها بضعف ثمنها .. وعندما تعلمت من تجربتي، وجئت بنقاش آخر لعلاج الشروخ واشتريت له كل الأغراض التي يحتاجها بنفسي تجنبا للخداع تلك المرة، سرق نصفها، وعندما واجهته أدعى ببساطة أنه استهلكها في العمل .. وعادت الشروخ لتظهر بعد أربعة أشهر .. وهكذا الحال مع كل الحرفيين ..

هز أحدهم رأسه وهو يقول: عمال المحلات أسوأ .. صدقني .. من عدة سنوات افتتحت مخبز وعانيت الأمرين منهم .. معظم الناس تظن أن المخبوزات غالية بسبب الدقيق، لكن السبب الحقيقي هو أجور العمال .. العامل الجيد يصر أن يتقاضى ٨٠ جنيها في الوردية الواحدة، ولا تتجاوز ورديته ست ساعات فقط، يعجن الدقيق ويهيئه ليقوم عامل آخر بخبزه في الفرن .. والمحل يعمل ثلاث ورديات ويحتاج لثلاث عمال مهرة في كل وردية، بالإضافة إلى البائعين .. في النهاية لا يكلفني رغيف الخبز بعد حساب تكلفة المواد الخام سوى أقل من عشرين قرشا، وترتفع تلك التكلفة إلى ستين قرشا بعد حساب أجور العمال .. لأبيعه أنا بجنيه للزبون .. ولولا أن المحل ملكي ولا أدفع إيجار لبعته بسعر أكبر، أو قللت من الخامات كما تفعل معظم المحلات الأخرى .. والأمر نفسه يتكرر في أي صناعة تحتاج لعمال مهرة .. والزبون يدفع أضعاف تكلفة المنتج دون أن يدري، وحتى لو كان يفعل، لا يمكنه تغيير الأمر، والدولة تغمض عينيها عن كل ما يحدث .. حتى في الحالات القليلة التي تفرض فيها غرامة على محل لمخالفة ما، يرفع صاحب المحل أسعاره ليحصل الغرامة من الزبائن، أي أن المستهلك هو من يدفع الثمن في النهاية .. سرقة علنية فاضحة ولا أحد يتدخل

توقفت العربة قليلا في أحدى الإشارات الضوئية فساد الصمت بينهم، قبل أن تكمل انطلاقها بعد برهة .. قطع أحدهم الصمت قائلا:

- ليت الأمر اقتصر على سرقة النقود .. هناك من يسرق راحتنا .. ويعبث دون رادع بأعصابنا ليلا ونهارا .. أتحدى أن تجد منطقة أو حي واحد دون ورش أو مقاهي، إلا في الأحياء القليلة الراقية التي لا يقطنها سوى علية القوم .. رغم أن القانون يحظر فتح الورش في المناطق السكنية، إلا أنها تنتشر في كل مكان كالسرطان .. تخيل فقط الإزعاج الذي يسببه مقهى تحت بيتك، والشارع الذي يحتكر نصفه لرص الكراسي .. محلات لا تتعدى مساحة الواحد منها ثلاثة أمتار لكنها تحتل شوارع بأكملها .. والورش التي تعمل ليلا ونهارا دون رحمة بالسكان .. حتى في المناطق السكنية الهادئة التي لا توجد بها محلات، يتحايل التجار على القانون بشراء الشقق في الأدوار الأولى لتحويلها إلى محلات وعيادات ومكاتب، بل وحضانات أطفال .. ولا ينال السكان سوى الزحام والضوضاء .. وإذا حاولت أن تشكو في الحي يقال لك أن معظم المحال في البلد غير مرخصة ولا

نعرف أصحابها كي نغرمهم ولا سجل رسمي لدينا بما يقومون به من أنشطة كي نخالفهم .. تخيل ..

- بالفعل .. إزعاج يفوق الوصف .. والأسوأ من ذلك مكبرات الصوت التي تلاحقك في كل مكان .. في المحلات والمقاهي والمدارس بل وفي المساجد .. تهرب إلى بيتك بعد يوم عمل طويل، تشتاق فقط لبضع ساعات من الراحة، ليطاردك الباعة الجائلين بمكبرات صوت تصم الآذان .. وطوال اليوم يمر عشرات الباعة علنا أمام بيتك وتحت أعين الشرطة والحكومة دون أن يتدخل أحد لمنعهم .. والغريب، أن الناس نفسها تهاجمك لو حاولت منع بائع منهم .. والحجة دائما "قطع الرزق حرام" .. ويتجاهلون أن الرزق الذي يرتبط بأذية الآخرين دون شك حرام .. لدى الناس هنا مفهوم غريب وخاطئ عن الرزق للأسف .. لا نمنع أي شخص يؤذينا حتى لا نقطع رزقه .. والنتيجة أنك لا تجد الراحة في منزلك، وتذهب للعمل نصف نائم، وعندها قد يقطعون رزقك أنت شخصيا ..

ضحك الجمع، قبل أن يؤكد أحدهم وهو يهز رأسه:

- المشهد نفسه تكرر في محل زيوت سيارات مخالف بالقرب منا .. وقع به حريق للمرة الثالثة فتحرك موظفي الحي أخيرا لإغلاقه .. لاتفاجئ ببعض أهل الحارة أنفسهم وهم أكثر المتضررين من الأمر يحاولون منع موظفي الحي من القيام بعملهم بحجة أن قطع الأرزاق حرام .. شئ غريب .. بنفس المنطق الأحمق يجب أن لا نعاقب المرتشي، ولا نقبض على اللص عندما نراه يسرق، أو خاطفي الأطفال والمجرمين والبلطجية، حتى لا نكون سببا في "قطع أرزاقهم" عندما يسجنون ..

قال آخر بعد لحظة صمت:

- السلبية بالفعل باتت أسوأ صفاتنا، الناس ترى الخطأ ولا تتحرك، بل وتدعمه .. بالأمس كنا في طريقنا للعاصمة، والسائق يصر أن يحصل على أجرة أكبر من المعتاد دون سبب فلم يعترض أحد، وعندما حاولت ذلك فوجئت بالركاب يقفون ضدي، بل يأمرونني بمغادرة العربة بعد أن رفض السائق التحرك بسببي .. ليت الأمر اقتصر على ذلك .. بمجرد أن وصلنا إلى العاصمة حتى انطلق السائق في طرق جانبية تجنبا للزحام، متجاوزا إياها بسرعة عالية وأحيانا عكس الاتجاه مثيرا فزع المارة .. من سوء حظه لمحته أحد الدوريات، بدأ الضابط بتدوين مخالفة له .. ما أدهشني حقا أن معظم الركاب هرعوا للتوسل للضابط كي يعفو عن السائق، بل أن امراة عجوز ظلت تدعو على الضابط لأنه أصر على القيام بعمله وتحرير المخالفة .. حتى اضطر الضابط في النهاية إلى تحذير السائق دون تغريمه .. كدت أجن وقتها .. ولم يتكلم أحد بالطبع عن الأجرة المخالفة التي طلبها السائق منا ..

تمر السيارة في تلك اللحظة على مظاهرة محدودة للتنديد بالمجاز الإسرائيلية الأخيرة في غزة .. يتعطل المرور قليلا مما يثير سخط البعض خاصة مع ارتفاع حرارة الجو .. يمصمص أحدهم شفتيه قائلا:

- ما فائدة تلك المظاهرات العبثية على أي حال .. لن تحل القضية بالهتافات .. نتظاهر بقوة ضد اليهود الملاعين ونحن أسوأ منهم .. وما نسببه من خراب في بلدنا أسوأ مما يحدث في غزة

تجاوزت العربة المظاهرة أخيرا .. سادت لحظة صمت بينهم لدقيقة، قبل أن يهز الأول رأسه ليؤكد:

- الشعب يحتاج لحكومة عادلة حقا تفرض القانون على الجميع، إذا أردنا أن ننهض .. قوانينا كلها حبر على ورق

أعترض آخر على الفور متمتما:

- عدنا لحسبة برما مجددا .. البيضة أم الدجاجة أولا .. كيف تأت بحكومة عادلة من شعب فاسد، هل يمكن الحصول على كوب ماء نظيف من بئر ملوثة .. لو هبط ملاك من السماء ليحكمنا لما تغير الحال كثيرا لأن الفساد بات في الناس أنفسهم ..

- اتفق معك أن الفساد استشرى بين الناس، وأن تغيير ثقافة شعب ربما يحتاج إلى عقود، لكن لا فائدة دون حكومة عادلة تتولى ذلك .. لن نعدم أن نجد شرفاء بيدهم إصلاح الأمر

أكد أحدهم على كلامه هاتفا:

- نعم .. الشرفاء كثيرون .. والناس تعرفهم، وتميز جيدا الشريف من الحرامي .. لكن لا صوت لهم .. والشعب لا يساندهم

تنهد آخر قائلا:

- لن يدفع الناس هنا بالشرفاء إلى السلطة، طالما يستفيد كل واحد منهم في النهاية من الفساد القائم بصورة أو بأخرى .. الطبيب يفتتح عيادة خاصة ولا يحاسبه أحد عندما يخطئ، والمعلم يهمل طلابه في سبيل جنة الدروس الخصوصية، والموظف الحكومي يرتشي أو لا يذهب للعمل .. والأمن يؤثر السلامة ولا يقوم بعمله ويسيئوا استغلال صلاحياتهم، والمجرمين يعيثوا في الأرض فسادا، والمحاكم لا تكاد تدين أحد بسبب كثرة الثغرات في القوانين وحيل المحامين المختلفة .. أما العمال والحرفيين فيسرقوننا علانية، والتاجر يرفع السعر كيفما يشاء .. لهذا لن نتغير .. كلما زاد عدد المستفيدين من الفساد، كلما قلت الرغبة في تغييره

- لكن مازال هناك كثير من الشرفاء

- ربما لأنه لم تتاح لهم فرص للفساد .. لو أتيحت لهم فرصة لاستغلوها على الفور .. إنما شرفهم عن عجز وقلة حيله لا عن ضمير

- لا أتفق معك .. الشريف يظل كذلك طوال عمره حتى لو فسد كل من حوله .. عددهم قليل لكنهم موجودين

- نعم .. يمكن تمييزهم بسهولة .. يجب أن نمتلك الجرأة ولو لمرة واحدة لوضع ثقتنا فيهم ودفعهم إلى مقاعد السلطة إذا كنا نود حقا أن نتغير .. البلد تنهار ونحن نشهد ذلك دون تدخل

سرت همهمة موافقة بين الجميع ..

ارتجت العربة قبل أن تتوقف أخيرا أمام باب مدرسة، بدأوا بالمغادرة واحدا تلو الآخر، يتأكد السائق من فهمهم للمطلوب، ثم يتركهم لينتظموا في صف واحد قصير أمام بوابة المدرسة ..

بعد ساعة يعودوا للانتظام واحدا تلو الآخر أمام العربة التي نقلت للتو مجموعة أخرى، يتأكد السائق من هواتفهم أنهم نفذوا المطلوب، واحد منهم فقط لم يلتقط صورة لبطاقته الانتخابية بعد ملئها للتأكد من اختياره للمرشح المتفق عليه فلا يمنحه شيئا، بينما يمنح سريعا ١٠٠ جنيه لكل فرد من الباقين .. يهمس أحدهم لزميله حانقا "الانتخابات اللي فاتت قبضنا ٢٠٠ جنية .. مفيش فائدة .. مش قلتلك بلد حرامية" .. يطلق زميله تنهيدة حارة موافقا .. تنطلق السيارة بهم سريعا .. قبل أن يعود السائق بعد أقل من ساعة وقد جلب مجموعة أخرى

أزمة

- أحتاج لمشورتك بشكل عاجل .. ليس كصديق، بل كطبيب

قالها سريعاً وهو يشيح ببصره بعيداً، وكأنه يهرب من مواجهتي، أدهشني الأمر، لأول مرة يطلب مشورتي، أعرفه من فترة طويلة، ربما كان أقدم أصدقائي وأقربهم لي، يتمتع باعتزاز شديد بالذات يدفعنا للسخرية منه أحيانا، وخجل قد يتجاوز حدود المعقول، وهو ما يدفعه أن يحتفظ دوما بمشاكله لنفسه، ولا يثقل على الآخرين بهمومه مهما كثرت ..

لما لم ألحظ الأمر مسبقاً، قلت له ضاحكاً بسرعة:

- كنت أعلم أنك ستلجأ إلي يوماً .. لما لا نذهب للعيادة أو ربما المستشفى، ستجد أن المكان هناك مريح للأعصاب أكثر

اغتصب ابتسامة على وجهه دون أن ينبس بكلمة أو يبادلني المزاح كعادته .. أدركت وقتها أن الأمر يؤلمه حقاً؛ نتوقف عن السخرية من مشاكلنا عندما تتضخم وتجاوز حدود قدرتنا على التحمل، ولا نعد نشعر بالراحة بالتنفيث عنها بصور أخرى كالمزاح .. اعتدلت على الكرسي باهتمام، وتركت له فرصة للكلام، رد بعد فترة وهو يتنهد:

- لو كان الأمر يتعلق بي فقط لما طلبت ذلك .. لكنه يتعلق بابني محمد، وهو ما يدفعني للجنون

- هل وقع له مكروه؟

هز رأسه قائلا:

- لا أدري .. لهذا لجأت إليك ..

سكت لبرهة .. منحنه الفرصة ليستجمع أفكاره .. حدق في نقطة لا مرئية ورائي وهو يتنهد مرددا:

- هل تعلم حقا ما هو أسوأ شئ يمكن أن تتعرض له كأب .. أن ترى نفسك في موقف العاجز أمام من تحبه، أن ينتزع منك أحدهم الهالة المحيطة بك ويجردك تماماً من كرامتك وانسانيتك، لتجد نفسك صغيراً جداً في أعين من كان يتطلع إليك دوما كقدوته ومثله الأعلى ..

بلع ريقه بصعوبة، تجنب تماماً أن تلتقي أعيننا، أكمل وهو يطرق للأرض:

- لم أحكي ذلك الموقف لأحد من قبل، لكن بات الأمر يرهق أعصابي مؤخرا، أحتاج لمشورة ما .. حتى لا يدفع ابني الثمن

صمت لثوان قبل أن يواصل:

- دعني أحكي لك من البداية .. تعلم منذ وفاة والدته لم يعد لي سواه يربطني بالدنيا، وهو أيضا بات يتشبث بي كطوق نجاة وحيد بعد أن عصفت به أمواج الدنيا مبكرا وحرمته من

والدته .. وإلى الآن لم يفق بعد من تلك الصدمة، ما زال بعد عامين من رحيلها يسألني عنها، وإن كانت أسئلته بدأت تقل وتتحول تدريجيا إلى نظرة شاردة على محياه ألمحها من حين لآخر كلما جاء ذكرها ..

خرجنا ذلك اليوم للتنزه معا، اعتدت انتهاز فرصة أي أجازة لنخرج سوياً، يظل أفضل أوقاتي التي أقضيها معه خارج جدران منزلنا الذي يذكرنا كل ركن فيه بها .. نكون على طبيعتنا وتختفي أكثر تلك المسافات التي تفصلنا حتى أصبح يعاملني كأب وصديق .. خرجنا مبكرا وزرنا عدة أماكن، وانتهينا بحديقة الحيوان .. تكلمنا كثيراً، ضحك من قلبه، ألقينا كل همومنا وراء ظهورنا .. كنت أضحك من قلبي وأنا أراه يحاول تقليدي، ويقارنني دائما بأبطال القصص التي يقرأها كثيرا في الفترة الأخيرة

في طريق العودة للمنزل، كنا مرهقين تماماً .. المرور مزدحم للغاية كالعادة في الفترات الأخيرة، اعتدنا ذلك على أي حال، تعلم بعد الأحداث السياسية الأخيرة أغلقوا عدد من الشوارع الرئيسة، وبخاصة تلك التي تضم مباني حكومية هامة أو نقاط شرطة، مما زاد الزحام على الطرق البديلة، لكن تلك المرة كان الازدحام غير طبيعي .. توقعت وجود حادث على الطريق؛ فضول السائقين لرؤية تفاصيل الحادث يدفعهم للإبطاء أو التوقف أحيانا، مما يخلق طوابير من السيارات، تكون نتيجتها في بعض الأحيان حوادث أخرى .. لكن تخميني لم يكن صحيحاً؛ علمت لاحقا من السائق أن هناك لجنة أمنية على الطريق ..

كم أكره تلك اللجان، والفوضى التي تثيرها .. فتحت نافذة السيارة طلبا للهواء في تلك الليلة خانقة الحرارة، أحسست فجأة بثقل على جانبي، التفت لأجد ابني الصغير وهو يسند رأسه على جانبي الأيسر وقد غلبه النوم بعد يوم شاق، أحطته بذراعي، انشغلت بمكالمة تليفونية، ثم الثرثرة مع بعض الركاب، وعندما تطلعت للساعة تفاجئت بتأخر الوقت حقا .. اجتاحني الضيق، وشعرت بالسخط أكثر على تلك الحملة الأمنية الحمقاء.. لدي عمل في الصباح وعلي أن استيقظ مبكراً، ومديري لا يحب التأخير ..

انشغلت بالأحاديث المشتعلة بين الركاب، والتي دارت حول الأوضاع السياسية الأخيرة، والبلد التي عادت لقبضة الأمن الخانقة، بعد أشهر من الحرية التي مازجها سبات أمني غريب .. عدد من الركاب يؤيد ما يحدث، بل ويدافع عنه بقوة، معظمهم من كبار السن، والبعض الآخر يرى ما يحدث دليل على العودة للوراء .. كانت حدة المناقشات ترتفع أحيانا لتنذر بالخطر، ثم تعود للهدوء .. وبعض الوجوه ترمقني بريبة من وقت لآخر، ربما بسبب لحيتي التي أهملت حلاقتها ..

راقبت تلك المناقشات دون تعليق .. ما زلت أنتمي إلى الأغلبية الصامتة، التي ترقب ما يحدث بمشاعر متباينة، تميل إلى جانب أو آخر لبعض الوقت، لكنها لا تشارك أو تتدخل

اقتربنا أخيرا من الكمين الأمني .. بضع عساكر يتناثرون بجانب ثلاث مدرعات للشرطة .. وقد انتشر بعضهم بين العربات يفحصونها بشكل عشوائي .. صاح السائق ما أن اقتربنا منهم بالتحذير المألوف:

- "اللي ممعوش بطاقة يا جماعة ينزل أحسن .. ويلف من أي جنب ويستنانا بعد الكمين"

تقدم منا شرطي مسن، أشار للسائق فتوقف على الفور، بينما فتح باب العربة وتطلع في وجوه الراكبين لبرهة .. بمجرد أن وقع بصره علي حتى اعتدل وكأنه عثر على ضالته، ليطالبني على الفور بمغادرة العربة ..

لم تكن تلك المرة الأولى التي أتعرض فيها لموقف مماثل .. نزلت من العربة وتركت ابني على المقعد الخلفي بعد أن استيقظ أثر حركتي المفاجئة .. عادة يتركني الضابط بعد أن يفحص بطاقتي، ويتأكد أني مدرس لغة عربية في مدرسة حكومية كما هو مدون في خانة الوظيفة .. ناولته البطاقة بتلقائية، قلبها العسكري بين يديه للحظات وهو يتطلع إلى وجهي، قبل أن يسلمها لضابط آخر بجواره، تطلع إليها بدوره، ثم وضعها ببساطة داخل جيبه، قبل أن يشير سريعا لعربة الشرطة ويأمرني بلهجة صارمة أن أركب فيها ..

ربما هناك سوء تفاهم، حاولت أن أوضح لهم أني مجرد معلم حكومي ولم أرتكب أي جرم يدفعهم للاشتباه بي، سألني الضابط عن وجهتي فاخبرته أني عدت للتو من الحديقة حيث كنت أنزه ابني وفي طريقي للمنزل، لكن يبدو أنه لم يكن يستمع إلى، أو أنه فعل وتجاهلني، لأنه أغلق باب سيارة الأجرة التي كنا نستقلها وأمر السائق بالتحرك بعد أن خبط بيده بقوة على مقدمة السيارة، فامتثل السائق سريعا .. ما أن تحركت السيارة وابتعدت قليلا حتى تذكرت ابني، ركضت وراء السيارة لأوقفها، ما كدت أبتعد خطوتين حتى صرخ الضابط وهو يراني أنطلق بعيدا عنه "رايح فين يا ابن الكلب"، توقفت وأنا أشير للسيارة موضحا له أن ابني بها، لحقني وقبض على معصمي بقوة آلمتني، رافضا أن يستمع إلي .. من حسن الحظ أن السيارة توقفت واندفع منها ابني بعد أن تنبه السائق متأخرا، وسرعان ما كان بين أحضاني ..

جرت الأمور بعدها بسرعة، حشرونا في عربة الشرطة وابني يتشبث بذراعي، بعد ساعة امتلئت العربة عن آخرها حتى بتنا نتنفس بصعوبة، معظم من قبضوا عليهم ملتحين مثلي، قبل أن يتحركوا بعد أن سحبوا منا الهواتف النقالة ..

خرجنا من العربة بعد ساعة بعد أن كدنا نختنق داخلها، وتعرض البعض بالفعل لنوبات إغماء .. اقتادونا بغلظة داخل القسم، سلمونا لبعض العساكر، لم يكن هناك فائدة من التوسل إليهم أو محاولة الاستفسار عن سبب القبض علينا، مهمتهم فقط كانت تنفيذ الأوامر .. طلبنا رؤية الضابط المسؤل فأخبرونا أنه خرج في حملة تأمين للوفد الإسرائيلي الذي يزور البلاد اليوم .. انتظرنا في صف طويل في ممر ضيق سئ التهوية، وكل ساعة ينضم إلينا آخرون .. طال الانتظار فافترش البعض الأرض ونام آخرون .. منعونا من التحدث لبعضنا، أو الدخول للحمام، ضاقت أنفسنا من الحر والانتظار، ولم

نكن نفيق سوى على شتائم بعض العساكر لنا ولعناتهم التي تنصب علينا وهم يحاولون التنقل من حجرة لأخرى فيتعثرون بنا بعد أن زحمنا المكان بأعدادنا المتزايدة ..

كان ابني يشهد كل ذلك وهو صامت لا ينبس بكلمة، لكني أرى ملامح الذعر واضحة على وجهه .. مع مرور الوقت زاد الأمر سوءا، نضحت الملابس بالعرق والتصقت بأجسادنا المنهكة وباتت الرائحة كريهة لا تحتمل .. طفح الكيل بالبعض فصاحوا في محاولة للاستفسار عن سبب القبض عليهم، معظمهم تم القبض عليه للمرة الأولى، حاولنا إسكاتهم دون فائدة فتولى العساكر القيام بالمهمة؛ شهدنا الصفعات والركالت تنهال على المحتجين فالتزم الجميع الصمت على الفور .. واحد فقط أصابته نوبة هيستيرية فظل يصيح دون توقف، جروه من ملابسه على الأرض .. قبل أن يلقوا به في غرفة منفردة، وصل إلينا صراخه وهو يتضائل شيئا فشيئا ليتحول إلى أنين مكتوم، ثم يتلاشى ببطء بعد دقائق أخرى..

شعرت بجسد ابني ينتفض بجانبي وهو يزاد التصاقا بي، لم أكن أرغب أن يشهد كل ذلك .. عند منتصف الليل حضر الضابط أخيرا، لم يمكث التحقيق معنا سوى دقائق، عندما سألته عن سبب احتجازنا رد في آلية: "اشتباه".. بمجرد أن لمح الطفل الذي احتضنه بحرص حتى ارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة وهو يشير إليه: "وده خاطفه منين" .. صحت لأؤكد أنه ابني .. لم يكن لدي ما يثبت ذلك، وطفح الكيل بي وقتها، تجرأت فارتفع صوتي وأنا أطالب بحقي القانوني لكنه استمع إلي وهو يرمقني بنظرة تهكم، قبل أن يأمر بارسالي إلى الزنزانة ومعي الولد حتى يتحقق من هويته، فجذبني العسكري بقسوة للخارج ..

دفعني العسكري طوال الطريق بغلظة إلى الزنزانة، دخلت هناك فصدمتني الرائحة، واحتاج الأمر بضع دقائق حتى تألف عيناي الظلام فأرى ما حولي .. زنزانة كبيرة حقا لكنها مزدحمة بالأجساد بشكل يصعب تخيله .. لم يكن هناك متسع حتى للجلوس .. ظللنا واقفين لأكثر من ساعتين حتى كلت أقدامنا، ولم يخفف عنا سوى خروج بعض من قبض عليهم معنا، لم نسأل عن سبب خروجهم، ما كان يهمنا هو أنه بات هناك مساحة شاغرة تمكننا من الجلوس، فجلسنا أخيرا متهالكين تماما ..

كنا في حال من الإعياء لا يمكن وصفها، نضب ماء جسدنا من الحر، طلبنا من العساكر الماء لكنهم تجاهلونا .. رغم الظلام وجدت أياد تمتد لتسلم علي .. يبدو أن البعض أعجبه ما قمت به أمام الضابط .. لم تكن شجاعة مني، أنا أبعد عن ذلك، ولكنها لحظة انفعال لم أعمل لها حسابا وهو يتعرض لابني ..

قضينا داخل الزنزانة قرابة اليوم، لقينا فيها الكثير .. حاول بعض البلطجية الاعتداء علينا ولولا كثرتنا لفعلوا، ولكننا خرجنا بإصابات عدة .. اتهمونا أننا "أخوان" وأننا "خربنا البلد" لمجرد أننا ملتحين، سلبوا من البعض كل ما يمكن أن تطوله أيديهم، الساعات والأحذمة الجلدية والخواتم وأحيانا الأحذية، الغريب أنهم لم يفرقوا في ذلك بين ملتحي

وغير ملتحي .. نزعوا خاتم زواجي بعد أن تعرضت لضرب مبرح دون تدخل من العساكر الذين يحرسون باب الزنزانة .. من حسن الحظ أن الشرطة جردتنا من محافظنا والهواتف المتحركة قبل نقلنا إلى المكان

ظللت طوال الليل مستيقظا لأحمي ابني ونفسي من مناوشاتهم .. قبل الفجر بقليل اهتزت الزنزانة على صوت واحد منا يصرخ من الألم .. مريض بالكلى هاجمته نوبة قوية، حاولت أن أنادي الحراس دون جدوى، واصلت الطرق على باب الزنزانة بقوة حتى فتحوا لنا أخيرا، ورغم أنهم عاينوا المريض لكنهم رفضوا نقله إلا بإذن من الضابط الذي لم يكن متواجدا وقتها .. بل وسخر بعضهم قائلا "بناقص واحد" .. في الثامنة صباحا انهار المريض وفقد الوعي، وفي العاشرة أخرجوه وهو لا يكاد يتنفس

عند الظهر كنت على وشك الانهيار .. استمروا بالنداء علينا واحدا تلو الآخر للعرض على النيابة .. ومع خروجنا التدريجي بدأت مضايقات البلطجية تزداد بعد أن تناقصت أعدادنا أمامهم .. تعرضت للشتم والضرب، لكني لم أسمح لأحد أن يلمس ابني .. حاول بعضهم أن يتحرش به لكني منعته، وتعرضت لكسر أنفي ومعصمي بسبب ذلك .. عاد إلى الزنزانة بعض زملائنا رغم قرار النيابة بالإخلاء عنهم .. لم أخرج إلا بعد المغرب بقليل .. كنت في حالة مزرية .. حكيت لوكيل النيابة كل ما حدث فتفحص بطاقتي، سألني أين كنت وعندما أخبرته لم يصدقني .. تذكرت أني التقطت بعض الصور في الحديقة .. طلبت منه أن يطلع على الصور في هاتفي ففعل .. انتظرت لمدة ساعتين أمام حجرة مكتبه مع بعض المشتبه بهم .. قبل أن يأمر بإطلاق سراحي أخيرا بضمان محل إقامتي

لم يكن معنا نقود .. استلمت المحفظة وهي خاوية فلم أعترض، تخيل .. حتى رصيد الموبايل استولوا عليه .. مشيت مرهقا لمسافة طويلة حتى وصلت لمنزل أحد اصدقائي وفكرت أن أصعد إليه لأقترض بعض النقود كي أعود للمنزل، لكني تراجعت في اللحظة الأخيرة .. لم أحب أن يشاهدني أحد في تلك الحال .. اضطررت للمشي إلى المنزل ومعي ابني .. وصلنا بعد ساعة تقريبا .. لم يتكلم طول الطريق .. حتى بعد أن وصلنا للمنزل .. ظل على صمته ولم يأكل إلا قليلا رغم أننا قضينا يوم تقريبا بلا طعام

راقبته وهو يتجه للفراش .. وتوجهت إلى غرفة نومي بعدها بساعة .. رغم إرهاقي لم أفلح في النوم .. ما كادت تمر دقائق حتى تفاجئت بابني يقف على باب غرفة النوم .. ظل في مكانه لفترة بصمت دون أن ألحظه، وعندما فعلت، سألته عما به فلم يرد في البداية .. قبل أن يردد فقط وهو ينظر للأرض بصوت مرتجف: "أريد أن أنام بجوارك" .. كان من الواضح أنه خائف حقا، أفسحت له مكانا بجانبي على الفور، تدثر بالغطاء رغم حرارة الجو ونام دون أن ينبس بكلمة .. بقيت طوال الليل مستيقظا بجانبه .. الغريب أنه بعد ساعتين هب فجأة من نومه .. يبدو أنه رأي كابوسا .. طمأنته فأحكم لف الغطاء حول نفسه مرة أخرى ثم اتخذ وضع الجنين ونام .. ولم يغمض لي جفن تلك الليلة سوى بعد الفجر

استيقظت مبكرا في السابعة، وأيقظته للذهاب إلى المدرسة .. ما كاد يغادر الفراش حتى اكتشفت أن السرير مبلل .. ويبدو أنه لاحظ ذلك لأنه تطلع إلى خجلا دون أن ينبس بكلمة .. لم أعرف كيف أتصرف .. ابني في سن العاشرة وعلى وشك بلوغ المراهقة ويتبول في فراشه .. لم يفعل ذلك منذ سنوات طويلة .. غادر وبدل ملابسه سريعا، ثم اصطحبته صامتا ليلحق بباص المدرسة .. وليومين بعدها نام بجانبي، ليتكرر الأمر مجددا

سكت عندها صديقي قليلا، أطرق إلى الأرض .. تنحنحت قائلا بعد برهة:

- ما حدث أمر طبيعي .. تعرض ابنك لليلة صعبة ومن المؤكد أنها تركت أثر سلبي .. ربما يحتاج الأمر لبعض الوقت والجهد .. من حسن الحظ أنك موجود بجواره لمساعدته

- أنت لا تفهم

قاطعني وهو يهز رأسه، ثم هرب ببصره بعيدا .. قبل أن يكمل:

- ذلك الصباح بعد أن غادر ابني للمدرسة .. توجهت للاستحمام .. لم أنوي للذهاب للعمل، كنت بحاجة لحمام دافئ لأريح أعصابي .. عندها فقط اكتشفت أن ملابسي الداخلية مبتلة .. وهو ما تكرر بالأمس .. هل تدرك معنى ذلك .. إلى تلك اللحظة، لا أعلم من منا كان حقا السبب في بلل السرير .. ومن منا بحاجة لمساعدة .. وأخاف أن أعرف ذلك .. ولا يمكنني أن أجعله يعود إلى النوم وحيدا في غرفته بعد أن اعتاد النوم بجانبي .. يقتلني حقا ذلك الإحساس بالخجل والعجز الذي يستولي علي في الفترة الأخيرة، والذي سيزيد في كلتا الحالتين، سواء علمت أني سبب المشكلة لأسقط أكثر في نظر ابني بمجرد أن يكتشف ذلك، أو كان هو من يعاني المشكلة بسببي .. هل تدرك الآن حجم مأساتي

تطلعت إليه لوهلة دون أن أتمكن من الكلام

في البدء كان

في البدء كان الألم ..

في البداية خلق الإله بشراً، جاءوا إلى العالم في ألم، بإرادة حرة وعقول أرقى من الجميع .. لم تمر سوى عشرات السنوات قبل أن يتحولوا ببطء إلى ذئاب وخراف وأنصاف آلهه .. ربما لهذا بعث رسلاً في محاولة لتذكيرهم بطبيعتهم الإنسانية التي تميزهم عن الجميع، تلك الحقيقة البديهية التي بدأت تغيب تدريجيا عن أذهانهم .. لكنهم رفضوا تصديق تلك الخرافات الحمقاء .. قلة صغيرة فقط من البشر آمنت بالرسل، سرعان ما ظهر بينهم ذئاب وخراف وأنصاف آلهه أيضا ..

.. ٢ .. ١

لم أكن أعلم أن هناك عدة أنواع من البشر إلا عندما فرضوا أنفسهم بأنفسهم على مسار حياتي، تمنيت وقتها أن أعود إلى العدم، يتلاشى وجودي البشري المادي وأعود إلى تلك المرحلة من الفراغ قبل ظهور أولى عتبات الوعي

يقولون أننا نحتاج لتجربة عنيفة حقا كي نبدل بعض المفاهيم التي طالما ترسخت في أذهاننا .. وحدهما الخوف والألم يمكنهما توفير أكثر تلك التجارب نجاحا

.. ٤ .. ٣ ..

في رحلة غير مأمونة النتائج للإفلات من قبضة الفقر، تخرجت من كلية الهندسة؛ خريج بسيط بأحلام وطموحات نضجت أسرع من سنه، وتحطمت بسرعة أكبر على صخرة الواقع

براتب بسيط لا يكاد يكفيني عملت في شركة انشاءات خاصة .. لأقرر بعد أشهر ترك العمل والاعتصام مع العمال أمام مقر الشركة مطالبين بحقوقنا بعد وعود طويلة بصرف مستحقاتنا المتأخرة لم تنفذ .. كان صوتي هو الأعلي وحماسي الأشد .. لم أكن أدرك وقتها تبعات أفعالي، ولم أملك الذكاء الكاف لأخمن أن صاحب الشركة من أنصاف الآلهة، وأن صوتي الضعيف لم يكن سوى الأثر الذي قاد الذئاب لتمييز رائحتي للمرة الأولى، لأوصم بعدها للأبد ضمن فئة الخراف المارقة ..

قضيت تلك الليلة في أحضان الشرطة للمرة الأولى بعد معركة دامية لم نخضها، لكننا تحملنا كل تبعاتها القاسية ..

.. ٦ .. ٥

خرجت بصعوبة، أسلمت نفسي لعزلة إجبارية، ولم أشأ التحدث عما حدث .. لم يعد التحدث يريح كالسابق .. هناك ألم يذوب بالافصاح عنه، بكشفه للعيان، يتبخر سريعا مع حرارة الكلمات، وآهات الشكوى وتنهدات الوجع .. وألم تخشى الإفصاح عنه كي لا تسمم حياة الآخرين .. وإن فعلت، يضغط الماضي على أنفاسك حين يعود لينبض بالحياة داخل ذهنك وأنت تستعيد ما حدث، فلا يزيدك التذكر إلا مرضا .. اقتحمت كلمات جديدة قاموس حياتي لم أتمن يوما أن أتعلمها، وتذوقت مشاعر مختلفة لم أختبرها من قبل، لأقرر أن الجهل بها نعمة .. وأن بعض ما نتعلمه لم يكن سوى نقمة تنقلنا لمراحل أعلى من الوعي نتمنى لاحقا لو لم نصلها .. بعيدا بشوط طويل عن دفء جهل طالما منحنا شعور زائف وخادع، لكنه لذيذ أيضا، بالأمان

حاولت أن أنهض من جديد، نجحت لفترة، قبل أن أقع في فخ الذئاب مرة أخرى .. انخرطت في مجموعة دينية شعرت معها أن جراحي تندمل مع من يشاركني أفكاري وتساؤلاتي .. ثم قررت هجرها متأخرا بعد أن اكتشفت أن قائدها من أنصاف الآلهه أيضا، ولا يهوى سوى ترويض خراف يمكنها أن تتحول إلى ذئاب عند الحاجة تسلم عقولها طواعية له .. رغم كل ما حدث وما زالت آثاره تؤلمني، اشتركت معهم في مظاهرة ضد بعض الاعتداءات الإسرائيلية في غزة دون أن تجمعني بهم سوى مشاعر السخط مما يحدث .. هتافات فقط تندد بعجز دولتنا وتنفث عن الغضب العارم المكبوت داخل كل منا، وأحاول التخلص بها من طعم المرارة الذي يترسب في حلقي يوما عن يوم .. لم أدرك حجم خطأي إلا عندما تفحص الضابط سجلي، وأدرك أني موصوم ضمن الفئة المارقة .. تلك المرة كانت المعاملة خاصة للغاية

---

٧ .. ٨ ..

كان الأمر حقا أشبه بمعجزة أن أري الشمس مرة أخرى .. أن أستشعر سخونتها، ويلامس وميضها جسدي .. خرجت من السجن لسجن آخر من اختياري، ابتعدت لفترة طويلة عن الناس .. لم أغادر المنزل لأي سبب، ورفضت التحدث مع أحد .. ضاع حماسي للعديد من الأشياء، وحل محلها لا مبالاة كبيرة باتت تحكم كل قراراتي

لم أكد أخرج للحياة مجبرا مرة أخرى، أتحسس طريقي فيها بصعوبة، وأمضي بضع أشهر في أتونها، مرغما نفسي على قبول أول وظيفة عرضت علي، فقط لأني رأيت أنها ستستهلك معظم وقتي وكل جهدي .. حتى تم القبض علي بتهمة التواصل مع عدد من العناصر المطلوبة أمنياً .. لم أعرف كيف أرد اتهام هزلي ولا يحكمه المنطق بتلك الصورة .. ألتقي بالفعل بالعديد من الناس بحكم عملي مؤخرا كمندوب مبيعات، لا أدري أيهم يهدد أمن الوطن، وأيهم ما زال يحافظ على مكانته ضمن الفئة المطيعة .. لست بنبي أو عراف لأدرك قرارة الناس، ولا يمكن أن أحيا في شك من الجميع

للمرة الثالثة أدخل نفقهم المظلم، دون أن أرى بارقة ضوء في نهايته تلك المرة .. نجحت تجربتهم في تحطيم العديد من الثوابت لدي للأبد .. بقيت حيا رغما عني .. في السجن، آخر ما يموت هو الجسد، يحرصون قبلها على اغتيال كل ما عداه، وبعض ما يمكن أن يشكل لاحقا أي دافع داخلي لديك للاستمرار في الحياة .. اقتربت عدة مرات على إيديهم بشكل مدروس من الموت دون أن يسمحوا لي بالارتماء في أحضانه الدافئة، إلى الحد الذي تفقد فيه العقل، ولايبق في عالمهم سوى الجسد فقط، مثقلا إلى حد العجز بروح تنبض خزيا

مع عودتي للعمل فقدت كثير من ذاتي القديمة، لم أعد أثق بأحد، ولم يعد أحد يثق بي بعد أن عرف الجميع أني حللت ضيفاً عليهم عدة مرات، الجميع يتجنبني حرصاً على تلك الفقاعة الواهية التي يؤمنون أنها تحميهم من بطشهم، وأتجنب الجميع رعباً من تجارب أخرى مستقبلية قد لا يمكنني تحمل آثارها ..

.. ٩ .. ١٠ ..

في تلك المرة لم يكن هناك سبب للقبض علي .. رغم أني عزلت نفسي عن غيري من الناس، ولم أعد أتردد على المسجد، وعملت بوظيفة حارس ليلي بعيداً عن دائرة الاختلاط بأحد .. مسؤول كبير يزور مدينتنا الصغيرة، جمعوا قبل الزيارة كل العناصر التي يمكن أن تشكل الخطر أمنيا، وكنت بينهم .. تحقيقات خاطفة، عدة أيام من الحبس، ثم أخلوا سبيل شخص آخر لم يعد يشبهني إلا قليلاً

.. ١١ ..

تكرر الأمر كثيرا، لم أعد أحفل بزياراتهم المتكررة إلى منزلي .. لكن هلع أبي وأمي هو ما يقلقني، ويفقدني ما تبقى من اتزاني .. يحرصون على القدوم عادة بعد منتصف الليل .. نستيقظ على طرقاتهم الثقيلة التي تكاد تحطم الباب، والرعب الذي يسمم سكون الليل .. في المرة الماضية اقتحموا غرف البيت كلها بهمجية في ليلة لم أغادر فيها المنزل .. حتى غرف أخوتي البنات اقتحموها دون خجل .. ليطاردني ألم ما يحدث لأقرب الناس لي دون رحمة

باتت دائرة مغلقة تحكم حياتي مؤخرا .. يلقى القبض علي، أبقى عدة أيام برفقتهم، ثم يطلقون سراحي فجأة .. وسؤال ملح بات يؤرقني؛ هل أشكل تهديدا لهم بأي حال .. لما الحرص على إطلاق سراحي بعد فترة، والسماح لي بالعودة إلى عالمهم الأوسع إن كنت كذلك .. لما لا يقوموا بإنهاء عملهم مرة واحدة بالنهاية الوحيدة المنطقية .. بات الأمر يتكرر كثيرا، دون سبب أو منطق .. أو ربما هناك سبب لم أدركه إلا متأخرا؛ لعلهم يطلقوا سراحي كعبرة لكل من يحاول أن يسلك طريقا غير طريقهم .. ليشار إلى في كل

مناسبة، ويقال بوضوح أن حطام ذلك البشري كان يوما من المارقين .. خيال مآتة بشري يتنفس ويمشي بين الناس، يثير الفزع لديهم من مصير مماثل، ويحذرهم قبل فوات الأوان من عاقبة سلوك طريق آخر غير الذي رسموه، حتى لو كان طريق قاتم بنهاية رتيبة معروفة ..

.. ١٢ .. ١٣ ..

فكرت أن أهرب إلى أي مكان .. ولكن من يضمن سلامة أسرتي .. آخرة مرة لم يخرجوا من منزلي بأيد خالية رغم أني لم أكن هناك .. قبضوا على أبي المسن فأسلمت نفسي سريعا إليهم كما خططوا .. لن أسمح لأبي ان يقضي ولو ليلة معهم .. ولن يكون أخي الأصغر ضحيتهم المقبلة

.. ١٤ ..

تقدمت إلى وظيفة حكومية مجددا، ورفض طلبي دون إبداء أية أسباب أعرفها جيداً .. ما زلت منذ أشهر بلا عمل بسبب رائحتي الخاصة التي يحرصوا أشد الحرص أن لا تخفى على أحد

.. ١٥ .. ١٦ ..

بالأمس كان حفل خطبة أختي .. بنهاية الحفل كنت مرهقا تماماً، وسعيداً أيضا .. افتقدت ذلك الشعور بالسعادة الذي يدغدغ الحواس، وظننت أنه ضل الطريق إلى للأبد .. في الليلة نفسها زاروني .. نمت بعمق غير معتاد فلم أشعر بثقل أقدامهم .. عادة أميزها من مسافة بعيدة، أميزها قبل أن تطرق باب بيتنا فأسارع لاستقبالهم طوعا .. أيقظت الجلبة الجيران كالعادة .. لم أعد أهتم .. كسروا يدي وهم يكبولنها بقسوة مبالغ فيها، فلم أبال كثيرا .. لكن منظر أختي وهي تبكي ليلة خطبتها أضاف جرحاً إلى روحي صعب أن يمحى

.. ١٧ .. ١٨ ..

يقال بعد فترة تعتاد على أي شئ .. السجن والضرب والإهانة، وأي شئ آخر .. من يقول ذلك أحمق .. يعتاد على ذلك شخص لم يعد أنت .. يعتاد جسد لم يعد ينتمي إليك، لكن عقلك يرفضها، ويحتفظ بكل إهانة تتعرض لها بحرص مريض سادي، فقط ليستخدمها لاحقا ضدك .. يضخم كل ما يختزنه في أوقات راحتك، ويتقل أنفاسك بها تدريجيا لعله

يتحرر أخيرا من ثقل عجزك وهوانك .. تشعر بسم بطئ المفعول يتجمع داخلك كل مرة تغادرهم، ينساب بخبث وحرية داخل جسدك، يغزو مناطق جديدة .. في النهاية تشاهده عاجزا عن التدخل وهو يقتلك دون أثر .. النهاية الوحيدة المنطقية التي خططوها لحياتك، ولا يمكن أن تعترض عليها خوفا من مصير قد يكون أسوأ

.. ١٩ .. ٢٠

لكل منا طاقة على التحمل، يذهلك قدرتها في البداية على تقبل ما لم تظن يوما بإمكانك تحمله، يدهشك كيف تتضخم وتتمدد مع كل صدمة لتتعدى كل حدود آمنة رسمتها في خيالك .. لكنها بعد فترة طالت أم قصرت، تفنى في النهاية ..

تلك الليلة .. مستلقيا على فراشي أداعب النوم، يلقيني كعادته قريبا من حدوده دون أن أعبرها، بعيدا بخطوات أيضا عن عالم الواقع دون أن يغيب بأكمله عني .. حتى ميزت رائحتهم .. وذلك الشعور الفوري بالغثيان الذي ينتابني بقوة يؤكد ظني .. نهضت فزعا .. يشل الخوف في تلك اللحظة كل قدرتي على التفكير .. تلك الليلة وللمرة الأولى اكتشفت أن طاقتي على التحمل نفدت، ولم يعد لدي مخزون منها يسعفني ولو قليلا، ويسمح لي بالاستسلام لهم كحمل وديع أحمق كما اعتدت كل مرة ..

وقع أقدامهم الثقيلة يشق السكون ويلهب أعصابي .. يثير أسوأ مخاوفي التي تقترن دوما بهم، ويضخمها بشكل أعجز عن مواجهته .. وجدت نفسي أندفع بلا وعي .. بعيدا تماما عن طريقهم .. نجحت مؤقتا في الإفلات منهم، بينما يتناهى إلى سمعي صوت طرقاتهم تكاد تحطم باب الشقة التي غادرتها للتو ..

الخوف يتملكني، ولا يمكن بأي حال أن يجتمع الخوف والقدرة على التفكير الصائب معا .. أمضي بلا وعي .. إلى أعلى .. أصعد السلالم كفأر مذعور، ووقع أقدامهم يلاحقني بعد أن لاحظني أحدهم .. يزداد هلعي حد الجنون .. يأمرونني بالتوقف .. تثير أوامرهم اضطرابي أكثر .. لن أفعل .. حتى لو قررت أن أتوقف، لن يطيعني جسدي بأي حال تلك المرة

أكاد أفقد أنفاسي وأنا أواصل الصعود، أصل للسطح .. لا مفر .. أشق طريقي في الظلام محدثا دويا عاليا، مرتطما بالعديد من الأشياء دون أن أهتم .. سائل ساخن ينساب من قدمي، جرحت نفسي كما يبدو، وأنفاسي تتقطع لكني أواصل الركض، ومن خلفي يأت ضجيجهم، بإصرار أحمق أدرك أنه لن يلين قبل أن ينالوا مرادهم ..

أتعثر فأنهض سريعا وأركض كالمجنون حتى أنتهي إلى سور السطح، يختفي الطريق ولا يبقى أمامي سوى الفراغ .. رغما عني أتوقف .. يقتحمون السطح بجلبة، يقتربون مني، أصعد إلى الحافة هربا .. أقف لاهث الأنفاس .. لن أسمح لهم بالقبض علي مجددا مهما

كان الثمن .. يتلاعب الهواء بجسدي الهزيل في تلك اللحظة، أحاول التماسك .. أتطلع حولي بيأس .. بينما يواصلون التقدم نحوي دون رحمة ..

تقترب خطواتهم مني .. أتوسل إليهم أن يتركوني دون جدوي .. أري أياديهم تمتد لاختطافي .. جسدي ينكمش رغما عني، أتراجع خطوة أخرى على الحافة دون إرادة، ورعشة عنيفة تسري في أطرافي .. أعلم بالتجربة أنهم لن يتوقفوا مهما فعلت، لكني أدرك أيضا بيقين داخلي مدى هشاشتي، واستحالة النجاة من ذلك الكابوس اللعين إن استسلمت لهم مجددا .. يقتربون، إصرار قاتل في أعينهم يزيدني يأسا .. تتضاءل مساحة الأمان تدريجيا بيني وبينهم، يتقدمون خطوة أخرى فأكاد أشعر بحرارة أنفاسهم .. لا يمكنني السيطرة على الرجفة التي تسري في جسدي، خطوة أخرى صغيرة للخلف لأحمي نفسي منهم .. يقفزون تجاهي فجأة، يتراجع جسدي في الفراغ رغما عني بعيدا عن مخالبهم التي تمتد إلي فتكاد تلامسني، أنجح في الإفلات منها .. و .. و .. ابتعد تدريجيا عنهم ..

****

السادسة مساء .. نشرة الأخبار

"انتحار إرهابي بعد أن ألقى نفسه اليوم من الطابق العشرين من أحد المباني السكنية، وذلك أثر محاصرة قوات الأمن له .. وقد عثر مع المتهم على أسلحة وذخيرة ومبلغ كبير من المال، وأكدت الشرطة أن .. "

رد فعل

توقع الجميع رد فعل قوي للسلطات الرسمية ..

ثار الشعب وهو يري المجازر التي تحدث يوميا في الأراضي المحتلة ..

تابع الناس أنباء الهجوم الغاشم على غزة بغضب متصاعد ..

ورغم تكرر الأمر كثيرا في الفترات الأخيرة .. ووحشية ما يحدث كل مرة

لكن الهجوم الأخير كان أشد قبحا .. والضحايا أكثر .. بخاصة مع انتشار أنباء استخدام قوات الاحتلال للفسفور الحارق ضد المدنيين العزل .. وما تبعه من صور مؤلمة تلهب المشاعر

تعلقت الأعين على نشرات الأخبار التي تلفظ كل ساعة أنباء عن مزيد من الضحايا، لتصل مشاعر الحنق والسخط لذروتها ..

كان لا بد من تدخل رسمي عاجل .. خاصة بعد حالة الغضب العارم التي انتابت الناس ضد المجازر الجديدة ..

والتي بدأت بمظاهرات شعبية في اليوم نفسه في عدة محافظات للتنديد بما يحدث ..

مع دعوات وترتيبات لتنظيم وقفات احتجاجية أكبر .. ومسيرة حاشدة في العاصمة

قررت الحكومة عقد اجتماع طارئ .. بتكليف من الرئيس

تعلقت الآمال على القرارات المنتظرة للحكومة ..

خاصة بعد أن طال الاجتماع لعدة ساعات على غير المعتاد ..

بينما في الشارع لم يعد هناك حديث سوى عن المأساة الإنسانية في الأراضي المحتلة .. وحالة من الغليان لما يحدث تسيطر على الجميع بانتظار قرارات حاسمة ..

مع الانتظار، لم تتوقف نشرات الأخبار عن سكب مزيد من الوقود على الأعصاب المشتعلة ..

انتهى الاجتماع متأخرا بعدة قرارات ..

نقلت وسائل التواصل في الحال وبشكل مكثف ما انتهي إليه الاجتماع .. قبل أن يتداول المحللين النتائج بين مؤيد ومعارض، مع شعور عام بخيبة الأمل ..

بخط عريض أبرزت الصحف المسائية القرارات الأولى للاجتماع على صدر صفحاتها الأولى، وعدد من القرارات الرئاسية والأخبار المرتبطة به ..

"الحكومة تدين بشدة المجازر الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني"

"الحكومة تقرر فتح معبر غزة لاستقبال مصابي الاشتباكات، وعلاجهم بالمجان في المستشفيات الحكومية"

"الرئيس يوجه بإرسال مساعدات عاجلة إلى غزة"

"توجيهات بعدم التعرض للمظاهرات الشعبية المنددة بالعدوان"

"الرئيس يدعو إلى عقد قمة طارئة للقادة العرب"

"مندوب مصر في الأمم المتحدة يدعو إلى اجتماع عاجل لمجلس الأمن"

انقسم الناس بين مؤيد لقرارات الحكومة التي تدعو للتهدئة وتتمسك بالشرعية، ومعارض لتخاذل الحكومة كالعادة عن اتخاذ رد فعل قوي يوقف تلك الاعتداءات .. ارتفعت حدة الخلافات والمناقشات بين الأطراف المختلفة، بشكل ينذر بالخطر أحيانا .. بينما هرع البعض للمستشفيات للتبرع بالدم .. ونشطت الجمعيات الخيرية لجمع تبرعات من أجل إرسال مساعدات عاجلة .. واكتفت الأحزاب السياسية ببيانات تنديد شديدة اللهجة، والدعوة لتنظيم وقفات شعبية حاشدة ..

وجه المحللين السياسيين على شاشة القنوات المختلفة سهام النقد إلى تلك القرارات .. اعتبرها البعض تخاذل من الحكومة .. بينما تناولها آخرون بالمديح في ظل الاتفاقات الملزمة مع الكيان الصهيوني والرغبة في الخروج بحلول منطقية في إطار الشرعية الدولية، وربما استغلال العلاقات الدبلوماسية الجيدة في الفترة الأخيرة بين البلدين، والاتصالات المستمرة بينهما، وآخرها زيارة وفد إسرائيلي لمصر قبل الاعتداء بيوم واحد .. على جانب آخر، عجت وسائل التواصل الاجتماعي برسائل غاضبة من جماهير بعض الشعوب العربية تتهم مصر بالتخاذل، وتدين تقاعسها عن المواجهة باعتبارها أحد دول الجوار .. مما دعا البعض داخل مصر إلى الرد والتذكير بالتضحيات التي قدمتها البلد مسبقا، والاتفاقيات الملزمة لها .. ليؤدي الأمر إلى جدال واسع وتراشق لفظي واتهامات متبادلة بالتقاعس والخيانة زادت حدتها مع تصاعد الاعتداءات

وفي وسائل الإعلام، وعلى صفحات الجرائد، انتشرت تحليلات سياسية للوضع القائم، وتغطية لمظهرات شعبية وقرارات رسمية مماثلة في عدة بلدان عربية، بالإضافة إلى مسيرات شعبية في عدد من الدول حول العالم للتنديد بما يحدث

في خضم ذلك، لم ينتبه أحد إلى باقي قرارات الاجتماع، وعدد آخر من الأخبار التي ظهرت في اليوم نفسه، والتي توارت في الصفحات الداخلية للجرائد ولم تحظى بمتابعة كبيرة على وسائل التواصل الاجتماعي او بين الناس

"الحكومة توافق على تحريك سعر البنزين"

"مجلس الشعب ينهي مناقشاته حول قانون الضرائب الجديد المثير للجدل رغم اعتراضات الأحزاب المعارضة، ويقوم بطرحه للتصويت في الجلسة المقبلة .. مع توقعات بتمرير القانون "

"الأمن ينجح في فض اعتصامات عمال المحلة والتي استمرت لعدة أيام"

"االنيابة تفرج عن محافظ القاهرة السابق المتهم بالرشوة لعدم كفاية الأدلة"

"اعتقال عدد من المنتمين لجماعة الأخوان المسلمين والجماعات المتطرفة بعد الاندساس وسط المتظاهرين للقيام بأعمال تخريبية"

كما لم يعد أحد يتابع فضيحة الفساد الحكومي الأخيرة التي هزت الرأي العام، بعد أن نشرت أحد الصحف الأمريكية الكبرى تقرير مدعم بالمستندات حول بيع الحكومة المصرية للغاز الطبيعي لشركات أجنبية بما يوازي ربع سعره الحقيقي، مما أدى إلى خسائر فلكية تقدر بعدة مليارات من الدولارات، وسط اتهامات بتقاضي جهات سيادية كبرى في مصر لعدد من الرشاوي من أجل تمرير الاتفاقية، والتغاضي عن كون إسرائيل المستفيد الأول من الأمر .. وهي الفضيحة التي تلاها اتصالات عدة على المستوى الرئاسي بين البلدين خاصة أن معظم الشركات الدولية المتورطة في الأمر تقوم بتصدير الغاز لاسرائيل، قبل أن يحدث الهجوم الغاشم-الذي أدانته الحكومة المصرية بشدة- ليغطي على الفضيحة

وصية

في منفاه الاختياري مات الوزير العربي السابق ..

لعشر سنوات استمر في الغربة، عزل فيها نفسه تماما عن أضواء الإعلام .. بعد أن ظل قبلها ولسنوات طويلة محط السمع والأبصار ..

لم يحتل خبر وفاته سوى أسطر قليلة في الصحف نفسها التي تسابقت في الماضي لنشر تصريحاته وأخباره على صدر صفحاتها الأولى، قبل أن تجبره رياح الثورة على مغادرة الوطن للأبد ..

مات دون ضجة .. بعد أن أثار دوما الضجة حوله ..

لفظ أنفاسه الأخيرة في الغربة بعد مرض قصير في مستشفي محلي صغير، مخلفا وراءه كثير من علامات الاستفهام، بعد أن سبقته في وطنه مزاعم عديدة بالفساد .. وسبرة حافلة بالاتهام يكاد يحفظها كل من عاصره ..

أربعون عاما قضاها كوزير ومسئول حزبي ..

ببطء لكن بثبات تسلق سلم المجد ..

تخرج بتفوق في كلية الزراعة فعين معيدا بها، لم يلفت الانتباه في البداية قبل أن يقدم عدد من الأبحاث العلمية أدت إلى القضاء على واحدة من أكثر الآفات الزراعية انتشارا في البلد فتنبه الجميع لنبوغه .. عين مستشارا في أحدى الهيئات الزراعية، والتي كان يرأسها وقتها أحد العسكريين القدامى كجزء من سياسة الجيش في الاستحواذ على كافة المناصب المدنية الهامة .. أثبت كفاءته سريعا خصوصا مع اعتماد رئيس الهيئة المتزايد عليه، ونجاحه في تطوير الهيئة وفقا لأحدث النظم وقتها، ليتم ترقيته ثم تعيينه وكيلا لهيئة الري في سن صغيرة

خلال سنوات قام بتأليف عدة كتب في الاقتصاد الزراعي وتم استضافته في عدد من البرامج وعزز علاقته بالمسؤولين .. لكن النقلة الكبرى في حياته جاءت بعد أن ترأس وفد لزيارة أحد الدول المعادية للاستفادة من تقدمها في مجال الزراعة، وللتفاوض حول مجالات التعاون بين البلدين .. قوبل تشكيل الوفد بسخط شعبي عارم لكنه لم يبال .. لفت الأنظار لينضم للحزب الحاكم المسيطر على مقاليد الحكم، ويتعرف عن قرب على قادته .. كتب في صحيفة الحزب بانتظام مدافعا عن التطبيع ومهاجما كل من ينتقد الحكومة .. توطدت علاقته بكبار رجال الدولة تدريجيا بعد أن تبين لهم إخلاصه الشديد، ونال منصب مستشار في وزارة الزراعة .. قرر الاستقالة من عمله الجامعي وتفرغ تماما للوزارة والحزب، ليترقى سريعا ويستغل الفرصة جيدا فيحكم قبضته على منصبه الجديد كمسئول كبير في الحزب يشار إليه بالبنان ..

خمس سنوات بعدها كانت كفيلة بتوسيع نفوذه .. تضخمت ثروته سريعا .. تكرر انقطاع مياه الري عن بعض الأراض الزراعية في قريته والقرى المجاورة بشكل ممنهج لتبدأ

بالبوار .. في الوقت الذي نشطت فيه عائلته المعدمة في شراء تلك الأراض بثمن بخس .. لتبدأ أمبراطوريته في الظهور

مع ارتفاع أسهمه، قرر الترشح لانتخابات مجلس الشعب بمباركة قيادات الحزب .. اختار الترشح عن الدائرة التي شهدت مولده وتضم عدة قرى في محافظته الصغيرة .. مرشح واحد من قريته، وعدد من قرى أخرى ترشحوا ضده، ومعظمهم من أصحاب الأراضي، لتبدأ المصائب تنهال عليهم .. قطعت المياه عن أراضيهم فبارت محاصيلهم، ومنع أن تصل إليهم أي أسمدة أو حبوب والتي تصرفها وتتحكم بها عادة وزارة الزراعة .. تم تحرير عدة مخالفات ضدهم بعد أن اكتشفت الحكومة فجأة قيام بعضهم بالبناء على أراض زراعية يملكونها من عدة سنوات مضت بالمخالفة للقانون، كيلت لهم اتهامات عدة أسوأها استخدام مبيدات منتهية الصلاحية وتلويث مياة الري والتعدي على أملاك الغير فسجن بعضهم، وتنازل آخرون ليكتسح الانتخابات دون عناء ..

مع نجاحه الملفت للنظر في الانتخابات، وفي كل المناصب التي تولاها، زادت أسهمه لتولي منصب وزير الزراعة، لكن صغر سنه حال دون تحقيق الأمر، ليتولى منصب نائب وزير الزراعة في اقتصاد يخطو خطواته الأولى المتواضعة في عالم الصناعة، وما زال يعتمد على الزراعة كمصدر رئيس للدخل القومي، وكحرفة متوارثة يعمل بها معظم أبناء الوطن ..

أتاح له منصبه في الوزارة والحزب عدد من الصلاحيات المطلقة .. توسعت أملاكه وزاد نفوذه، قضى على كل من وقف ضده، وحرص على تهميش كل القيادات الناشئة في الوزارة فبات المتحكم الأول فيها .. ترشح لانتخابات مجلس الشعب للمرة الثانية وفاز تلك المرة بالتزكية .. ومع اتجاه الدولة المتأخر نحو استصلاح الأراضي بعد الزيادة السكانية المطردة، قرر تولي الدفة .. أصدر عدة قوانين ومنح تسهيلات بالجملة .. تم بيع عدد ضخم من الأراضي الصحراوية المخصصة للاستصلاح بثمن بخس للمستثمرين .. بل قامت الوزارة بتوصيل كافة المرافق بالمجان إليها في سبيل الحلم القومي الكبير بتحويلها إلى جنة خضراء .. لتتحول بعد سنوات إلى تجمعات سكنية فاخرة لا يقطنها إلا الأثرياء دون تحرك من الدولة ..

وعندما بدأت صحف المعارضة تلمح للأمر، أغلق بعضها، وقدم تسهيلات جديدة وأغرى الشباب لاستصلاح أراض في الصحراء، بل ومنحهم إياها دون مقابل .. وفر لهم كافة السبل وذلل كل العقبات .. نجحت تجربته وبدأت الأرض الصفراء تتحول بعد سنوات من العمل الشاق ليكسوها تدريجيا اللون الأخضر، سلطت وسائل الإعلام الحكومية الضوء على المشروع كأحد إنجازات الحكومة المميزة، وبدأ ينال المديح .. لكن بعد سنوات بات اهتمام الوزارة بالمشروع يقل تدريجيا، قام برفع سعر الخدمات المقدمة لملاك الأراضي من الشباب وحاصرهم بالمشاكل الإدارية فبدأوا بالتخلي عن المشروع واحدا تلو الآخر، لتقوم أحد الشركات الزراعية الخاصة الكبرى- والتي يقال أنه شريك بها- بالاستيلاء على تلك الأراض بثمن زهيد ..

ومع مرض وزير الزراعة، بات هو صاحب القرار الفعلي .. وبدأ الناس بترديد اسمه كأحد الحيتان الكبرى المتحكمة في مقدرات البلد .. غض الطرف عن استيراد بعض الشركات الخاصة، منها شركة تابعة لأحد أقاربه، لبذور وتقاوي غير مطابقة للمواصفات، والتي تم هندستها وراثيا لزيادة الانتاج دون أن تمر بالاختبارات الكافية، ليتغير مذاق الطعام للأبد .. تردد اسمه أكثر بين الناس عندما طفت على السطح مشكلة نقص المياه بعد تراجع معدلات تساقط الأمطار، وكنتيجة مباشرة لتوسعه في الاستصلاح واستهلاك مصادر المياه العذبة في الدولة دون دراسات كافية .. اتخذ قرار جرئ عارضه كثيرون بمعالجة مياه الصرف الصحي وإعادة استخدامها في الزراعة .. حذر معظم الخبراء من مغبة القرار وآثاره الكارثية المتوقعة لكنه لم يتراجع .. بدأ بتنفيذ الأمر في محافظته الصغيرة وعدد من المحافظات القريبة، ليتم معالجة المياة بشكل بدائي وبإهمال متوقع، وخلال سنوات انتشرت أمراض عدة كالفشل الكلوي وتورم الكبد والسرطان في المحافظات التي طبقت المشروع .. وعندما كتبت صحيفة تنتمي لأحد أحزاب المعارضة عن الآثار الكارثية لقراره، تعرضت للغلق، واختفى عدد من محرريها، قبل أن يتراجع عن المشروع نهائيا خوفا من فضائح أكبر

مع استقالة الحكومة بأكملها لفشلها في إدارة بعض الملفات، لم يجدوا أفضل منه .. تولى الوزارة أخيرا كأصغر وزير زراعة في تلك البلد لتبدأ حقبة جديدة .. هيمنت الوزارة أكثر فأكثر على مقدرات الزراعة في البلد .. تم رفع سعر الأسمدة في عصره .. قلة محظوظة فقط كانت تتحصل على الأسمدة بسعرها المدعم من الدولة، ليتم بيعها لاحقا بأضعاف ثمنها للفلاحين .. سياسة الري كانت تخضع للأهواء؛ كل من يعارض أو ينتمي إلى المعارضة يتم تقتير المياه لتبور أرضه، بل أنه قطع المياه عن قرى بأكملها في بعض الأحيان كعقاب جماعي بحجة أنها تأوي بعض العناصر الإرهابية .. ومع إتباع الدولة لسياسة الخصخصة لبيع الشركات الحكومية المتعثرة، ومعها أصول تلك الشركات من أراض ومبان ومعدات .. قام ببيع أراض زراعية ومزارع ومصانع أعلاف وأسمدة ومعدات زراعية حكومية بأثمان زهيدة لا تتوافق مع قيمتها الحقيقية .. في عهده امتلك كل مسئول حكومي رفيع مزرعة أو قطعة أرض زراعية أو مصنع كانت تابعة سابقا للدولة

ترقى في الحزب بعد أن أثبت ولائه، واعتبره البعض ضمن الفئة المقربة للرئيس العجوز، بل الرجل الثاني في الدولة، لما لا وقراراته تؤثر على الملايين .. لم يسمح بأي صوت للمعارضة، أغلق عدد من الصحف بأوامر مباشرة منه، وقضى على عدد من الصحفيين ممن حاولوا نبش ماضيه أو التلميح لفساده ، حتى باتت الكتابة عنه أو عن الحزب الحاكم الذي ترقى وكيلا له، خطا أحمر لا يجرؤ صحفي على تجاوزه .. أطلق عليه الشعب لقب "الديكتاتور" متبوعا باسمه عوضا عن لقبه العلمي كدكتور جامعي ..

استمر في توجهه نحو مزيد من التعاون مع الدولة المعادية، بتعليمات خاصة من البنك الدولي الذي فرض التعاون كشرط للحصول على عدد من القروض المالية الضخمة التي

لم يعلم أحد مصيرها، وكاستجابة أيضا لضغوط بعض الدول الكبرى الصديقة للكيان المعادي، مقابل غض الطرف عما ترتكبه حكومة بلاده من إجراءات ديكتاتورية، ليكتسب عداء الشعب أكثر .. وعندما حاول أهل قرية طرد بعثة من الدولة المعادية تزور أراضيهم، سجن كثير منهم .. محصلة التعاون بين البلدين لم تظهر إلا بعد سنوات، مع انتشار عدد من الآفات الزراعية التي لم تعرفها البلاد من قبل وساعدت على تدمير الزراعة الوطنية بل وصدرت الأمراض الخبيثة وبكثرة للمزارعين والمستهلكين على حد سواء ..

زادت جرائمه، قام بتصنيف كثير من الأراض الزراعية الخصبة كأراض بور، لتباع كأراض بناء بأضعاف ثمنها .. ويقال أن ربع الأراض الخصبة في وطنه تم تبويرها في عصره .. توسع في استيراد سلالات جديدة أخرى من البذور بحجة أنها تزيد الإنتاج .. زاد الإنتاج وتغير مذاق كل شئ .. حتى أن الشعب أطلق على المحاصيل الجديدة لقب "البلاستيكية" نظرا لمذاقها السئ ..

بدأ عرشه يهتز مع فضح عدد من الصحف الأجنبية لصفقات مشبوهة تتعلق بشراء بلاده لمبيدات مسرطنة؛ والتي سبق تصنيفها بأنها عالية الخطورة من قبل هيئات علمية أجنبية نظرا لاحتوائها على مواد تسبب السرطان، وتم منع استخدامها بالفعل في عدد كبير من الدول، لكنه استوردها رغم ذلك بكيمات ضخمة بحجة رخص ثمنها .. حاول التغطية على تلك الفضيحة، لكن آثارها اللاحقة كانت تنطق باسمه

ظل في منصبه الوزاري لأكثر من ثلاثين عاما .. تراجع نفوذه قليلا مع ظهور ابن الرئيس؛ الشاب الذي يسعى لتولي مقاليد الحكم خلفا لوالده، محاولا صنع رجال يدينون له بالولاء مع التخلص من الحرس القديم، وتعيين أتباعه في المناصب الكبرى، ليتراجع نفوذه في الحزب والوزارة، وينزل الستار تدريجيا على حياته المهنية .. ثلاثون عاما تغير فيها مذاق الطعام حتى لم يعد الناس يميزون طعمه الأصلي، وانتشرت الآفات الزراعية، وأصيب قطاع كبير من السكان بأمراض مزمنة لم تعرفها البلاد من قبل، وتراجعت الرقعة الزراعية بشكل مخيف، وباتت البلاد تعتمد على استيراد معظم احتياجاتها الغذائية من الخارج .. ثلاثون عاما أغلق فيها العديد من قنوات المعارضة في عصره ولم يعد يعلو فيها سوى صوت وسائل الإعلام التابعة للحكومة والحزب الحاكم .. ثلاثون عاما لم يتوقع أن تأت بعدها ثورة لتطيح برئيسه العجوز

ركزت الثورة بعد نجاحها على مقاضاة رؤوس الفساد في البلد، سلطت وسائل الإعلام الضوء عليه وكتبت عن تاريخه الأسود، وما عانت منه البلد تحت قيادته .. تكاثرت الاتهامات حتى أن أحد الصحف وصفت الأضرار التي لحقت بالبلد في عهده بأنها توازي بل تفوق تلك الآثار الكارثية التي خلفتها القنابل النووية في اليابان .. أطلقت عليه بعض الصحف لقب "القاتل البطئ"، بعد أن ساهم طوال مدة حكمه في تسميم الشعب، وترك آثارا كارثية قد تمتد أضرارها لعدة أجيال قادمة

نفى كل تلك الاتهامات في جلسة محاكمته الوحيدة، أكد أنه رجل وطني خدم بلاده وطور الزراعة وارتقى بها .. بل قدم سلالات جديدة من البذور ساعدت على إنتاج طعام كاف لعدد السكان المتزايد بصورة تنذر بالخطر، ومبيدات ذات جودة عالية بسعر في متناول الفلاح المعدم .. أدعى أنه قضى على بذور الإرهاب في القرى بل ونشر الوعي السياسي بين أبناء وطنه .. تناولت الصحف تصريحاته بسخرية، لم يدل بعدها بأية تصريحات أخرى، ورفضت المحكمة إدانته لنقص الأدلة، ليسافر للخارج

قضى عشر سنوات في الغربة .. تعقبت الصحف في البداية حياة البذخ التي يحياها هناك، انتشرت صور لقصره الفخم ورحلاته لعدد من الدول خصوصا مع إعادة فتح التحقيق مرة أخرى في جرائمه، واستدعائه للمحاكمة .. لكنه لم يعد للوطن، وبدا الاهتمام به يتضائل تدريجيا ..

بعد عشر سنوات تم نقله إلى مستشفى صغير بعد تعرضه لوعكة صحية، ليدخل في غيبوبة بعد ساعات قليلة من وصوله .. وصل الخبر سريعا إلى الوطن لترسل بعض الصحف مندوبين لتغطية الخبر، مع توافد صحفيين عرب يعملون داخل البلد الأجنبي إلى المستشفى التي يرقد بها

لم يفق إلا قبل وفاته بساعات قليلة، طلب استدعاء محاميه على الفور، كما طلب رؤية أحد رجال الدين، مما أثار استغراب الجميع، لتبدأ التكهنات بالانتشار .. توقع الجميع أن صحوة ضمير انتابته في أيامه الأخيرة بعد أن بات قريبا من حافة الموت .. ربما يوصي بأمواله للفقراء من أبناء شعبه، وما أكثرهم، للتكفير عن ذنوبه، خاصة أنه لم ينجب، وتخلت عنه عائلته بعد أن تلوث اسمه، رغم ما لحق بها من ثراء بسببه ..

توقع آخرون أن يدلي باعترافات هامة قد تعيد بعض الحق لوطنه .. خاصة أن البعض يعتبره "الصندوق الأسود" لنظام ديكتاتوري بشع حكم البلاد لسنوات طويلة .. أو لعله يعترف بجرائمه ويريح ضميره بعد أن أقترب من حافة الموت ..

وصل محاميه ورجل الدين أخيرا .. استغرق الأمر دقائق .. قررا البقاء في المستشفي بعدها بجوار المريض الذي تتدهور حالته سريعا .. وقبل مرور ساعة أخرى، كان قد لفظ أنفاسه

زاد الفضول لمعرفة وصيته الأخيرة .. ما أن ظهر المحامي على أعتاب المستشفى حتى سارع الجمع المحتشد إليه، حاصروه بأسئلتهم، فلم يجد بدا من التأكيد بهدوء:

- لم يقم الراحل بتغيير وصيته، أوصى بكل شئ لأهله من فترة طويلة .. ستعود ثروته وكل أمواله إليهم .. لكنه أضاف شئ واحد فقط

سكت قليلا، تطلعت إليه العيون بترقب، قبل أن يقول متنهدا:

- تعلمون كم ضحى الراحل من أجل بلاده، ولم يتوقف عن التفكير في الوطن الغالي حتى في لحظاته الأخيرة .. تمنى قبل وفاته أن يعود جزء غال من الوطن إليه بعد كل تلك

السنوات .. لذا لم يشأ الفقيد أن يدفن هنا .. وصيته الأخيرة كانت أن يدفن في وطنه .. قال أن تراب الوطن أولى بكل تأكيد بشرف احتضان جثمانه الطاهر

هجرة

قررت إسرائيل التعجيل بتنفيذ المرحلة الثالثة والأخيرة من خطتها التي تهدف تهجير مواطنيها إلى الأرض الجديدة، بعيدا عن فلسطين .. في الواقع لم يكن القرار فجائياً، بل سبقه عدة اجتماعات مطولة بهدف وضع خطة طويلة المدى بدأت بالمرحلة الأولى من عدة سنوات والتي استهدفت البحث عن الأرض الموعودة الجديدة، خاصة بعد انتشار الجدب في المنطقة خلال السنوات الأخيرة، أثر قلة معدل تساقط الأمطار، وارتفاع درجات الحرارة بشكل غير معهود، فضلا عن التوقعات باستمرار الجدب بل زيادة حدته في السنوات اللاحقة، مما عجل بسرعة اتخاذ القرار .. ومع تضخم تكلفة الحفاظ على الأمن، وزيادة معدلات الإنفاق الحكومي لمواجهة آثار الأزمة وارتفاع مستوى المعيشة مما يرهق المواطنين، بدأ التفكير بجدية في الهجرة إلى أراض أخرى تتسع للحلم الصهيوني، حتى استقر المقام بعد بحث استمر عدة أشهر على جزيرة ستيوارت في جنوب المحيط الهادي والتي تم اختيارها بعناية فائقة، نظراً لتمتعها بمناخ جيد ومعدل تساقط أمطار ثابت، بالإضافة إلى قربها من أمريكا، لتبدأ المرحلة الثانية بالتوصل إلى اتفاق مع الحكومة النيوزلندية لشراء الجزيرة مقابل مبالغ ضخمة وعدد كبير من الامتيازات من الدول الصديقة، وتهيئة الجزيرة لاستقبال مواطني الدولة، وهو ما تم في إطار زمني أسرع من المتوقع، لتدخل المرحلة الثالثة من الخطة حيز التنفيذ في موعد أبكر عدة سنوات مما تم الإعلان عنه.

وكرد فعل، اجتمع الرؤوساء العرب لمناقشة القرار، حيث عقدت قمة عربية طارئة في أحد دول الجوار، لم يتخلف عنها أى من الرؤوساء العرب، حتى من أقعدهم المرض من فترة ليست بالقصيرة عن الظهور في وسائل الإعلام، أو ممارسة مهام الحكم بشكل علني. بمجرد أن بدأت الجلسة، حتى بدأ أحد الرؤساء العرب حديثه مخاطباً الجميع عن آثار القرار:

- دعنا نفكر بتعقل بعيداً عن العاطفة .. لا مجال للحماس أو الانفعال غير المدروس في قضية مصيرية كتلك قد يتوقف عليها مستقبل المنطقة

سرت همهمة موافقة بين الجميع، أكمل بهدوء:

- كنت أتمنى طوال عمري زوال دولتهم، وأنتظر ذلك اليوم بفارغ الصبر .. لكن لا يخفى على أحد أن هناك معاهدات صلح بيننا وبينهم، وعدد من الاتفاقيات اللاحقة الملزمة .. والتي بموجبها نحصل على مجموعة من الامتيازات والقروض المالية الهامة .. وستؤدي تلك الهجرة حتماً إلى إنهائها، وربما تدمير اقتصادنا الهش الذي بات يعتمد بشكل كبير على تلك المساعدات والمنح

ساد اللغط بين الجميع، ارتفع بشكل ينذر بالخطر، تناول الكلمة سريعاً زعيم آخر أكبر سناً، تنحنح قبل أن يقول:

- أتفق معك .. ينبغي أن نفكر بتعقل، بعيداً عن الانفعالات، ولتكن نظرتنا للمستقبل .. أتمنى إبادتهم بالطبع، وحلمت بذلك كثيرا.. لكن من يدري .. ربما تحتل الأراض الفلسطينية –رغم جدبها الآن- قوى أخرى، تلك الأرض طوال التاريخ لم تخلو من مستعمر أو غازي طامع في خيراتها وثرواتها، ولن نتركها للمنظمات المسلحة الفلسطينية التي تعاني الانقسام وما يعقبه من فوضي قد تطول بلادنا .. لنكن عقلاء، أمقت أولئك النازيين الجدد وكل أفعالهم .. ولكن من الحكمة القول أن عدو تعرفه خير من آخر تجهله

سادت همهمة بين الجميع .. تناول الكلمة سريعا زعيم صغير السن، تطلع للجمع المحتشد قبل أن يقول:

- سأكتفي بالتحدث عن أثر القرار على دولتنا .. كما تعلمون جميعاً، نحن مجرد دولة صغيرة فاصلة بين الصهاينة من ناحية وأكبر الدول العربية في قارتنا من ناحية أخرى، وبهذا نضمن لتلك الدولة العربية الأمان، في مقابل مساعدات قيمة نحفظ بها توازن اقتصادنا الهش، خاصة أننا لا نتمتع بموارد كتلك التي يتمتع بها جيراننا العرب .. إذا رحلت إسرائيل فعلى دولتنا السلام

ارتفع اللغط بينهم مجددا، قاطعهم زعيم ثوري بغضب وهو يضرب بقبضته المنصة:

- لا أؤيد قرار رحيلهم، قتلة الأطفال .. لن أقف ساكنا أشاهدهم وهم يرحلون بتلك البساطة .. هناك ثأر بيننا وبينهم، وعليهم أن يدفعوا الثمن من دمائهم .. من الصعب بطبيعة الحال شن حرب للأخذ بثأرنا وهم في أقصى العالم بعيدا عن متناول أيدينا .. يجب أن يعي الجميع، نحن كعرب لا ننسى ثأرنا

قاطعه زعيم الجلسة بهدوء:

- لكن دولتكم لم تطلق يوما رصاصة واحدة ضدهم

رد الزعيم الثوري بلهجة غاضبة:

- ما زلنا نستعد لذلك

– من عشرات السنين تدعون ذلك .. اكتفيتم فقط بتحريض دول الجوار على محاربتهم .. متعللين دوما بعدم وجود حدود مشتركة بينكم وبينهم .. هذا كل ما قمتم به لخدمة القضية .. بل قمتم باستغلالها في كل خطبة لإثارة الجماهير واكتساب شعبية والتغطية أحيانا على بعض فضائحكم

علا صوت الزعيم الثوري، كادت أن تنشب مشاجرة قبل أن يتدخل البعض للتهدئة، تناول الكلمة زعيم آخر لينهي الجدل قائلاً:

- الكل يعلم أننا نحصل على مساعدات عسكرية ضخمة نتيجة لوقوعنا على خط المواجهة .. وسنفقدها في حال رحيلهم .. بالإضافة إلى ذلك، سيؤدي القرار إلى تسريح عدد كبير

من الضباط والجنود ممن كنا نتعلل بحاجتنا إليهم لمواجهة مرتقبة مع العدو .. من الصعب تسريح كل هذا العدد، وربما يؤدي الأمر إلى انقلاب الجيش على السلطة

ارتفعت همهمة الموافقة من البعض .. تكلم زعيم آخر أحدث سناً:

- إذا رحلوا سنوصم بالعار للأبد أمام كل دول العالم، وسيتم تأكيد تلك السمعة السيئة المنتشرة عنا .. متطرفون، عنصريون، إرهابيون، لا نحترم جيراننا .. بل سيقال أننا تلاعبنا بجارتنا المسالمة رغم معاهدات الصلح، ولا تنسوا أنهم يسيطرون على كثير من وسائل الإعلام الهامة

أيد كلامه زعيم آخر: نعم .. كيف نبرر إنفاقنا العكسري الضخم أمام شعوبنا، نحن أكثر الشعوب شراء للأسلحة من الدول المتقدمة، حتى ترفع أيديها عن قضايانا الداخلية ولا تنتقد ما نمارسه .. وقد يفلس عدد كبير من النجوم والمطربين والكتاب والفنانين ممن اعتادوا دوماً الدفاع عن القضية الفلسطينية والتربح من وراء ذلك، وسنفقد مصداقيتنا أمام شعوبنا بعد أن قطعنا العهود والوعود لطرد اليهود بالقوة، كما أن وجود عدو على حدودنا يوحد القوى المختلفة في الوطن لمواجهته وينهي الانقسام الطائفي الذي ينذر دوما بالخطر

ساد اللغط بينهم .. امتدت الجلسة لعدة ساعات أخرى .. بعد شد وجذب من كافة الأطراف، تم في النهاية التوصل إلى صيغة قرار بالإجماع .. خرج بعدها المتحدث الرسمي ليلعن ما تم التوصل إليه لوسائل الإعلام العربية والعالمية المتلهفة لمعرفة النتائج الختامية للجلسة الطارئة .. ساد الصمت والمندوب يتلو قرارات الاجتماع، والتي تمثلت أبرزها في رفض وشجب وإدانة قرار إسرائيل الهجرة من الأراض الفلسطينية بشدة، وتشكيل وفد على أعلى مستوى من الرؤوساء العرب في محاولة للتفاوض مع إسرائيل وتقديم كافة التسهيلات الممكنة، لإثنائها عن القرار المتسرع.